الإســــلام في عصر العولمة

أ.د. محمود حمدي زقزوق
عضو هيئة كبار العلماء

هدية شعبان ١٤٣٩هـ



مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
تأسست عام ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١م

تنويـــه

نشر على غلاف هدية شهر رجب ١٤٣٩هـ مقاصد الشريعة الإسلامية وضرورات التجديد.. بحث وتحقيق أ.د. محمود حمدي زقزوق

والصواب أنه تأليف أ.د. محمود حمدي زقزوق

لذا وجب التنويه



مقدمة

لا جدال في أن عصرنا الحاضر - عصر ثورة المعلومات والاتصالات والثورة التكنولوجية، عصر الفضائيات والبرمجيات والاستنساخ، عصر العولمة والإنترنت - يعد عصرًا مختلفًا اختلافًا بينًا عن أي عصر سابق؛ فقد أصبحت منجزات هذا العصر تحاصر الإنسان في كل مكان، ولم يعد في مقدور المرء أن يلاحق التطورات والاكتشافات العلمية المذهلة التي تظهر كل يوم.

وقد انعكس ذلك كله بطبيعة الحال على نظرة الإنسان للحياة وعلى اهتماماته ومتطلباته، وأصبحت النظرة المادية للحياة تكاد تطغى على تفكير الكثيرين في المجتمعات المعاصرة.

وقد دفع ذلك البعض إلى التساؤل عن مدى التأثير السلبي لذلك كله على الأديان بصفة عامة وعلى الإسلام بصفة خاصة؟ وقد يطرح البعض التساؤل بشكل أكثر وضوحًا عما إذا كان لا يزال هناك للأديان - في خضم هذه التطورات المذهلة - دور أو مكان في حياة الإنسان؟ وعما إذا كان الدين قد أصبح من الهامشيات في حياة الإنسان المعاصر؟

إن هناك أسئلة كثيرة في هذا الصدد تفرض نفسها بإلحاح ولا بد للمرء من مواجهتها والتفكير فيها والإسلام لا يستطيع أن يعزل نفسه عن كل ما يدور حوله في هذا العصر أو في أي عصر قادم، وبخاصة أنه بطبيعته وفي جوهره دين للحياة بكل أبعادها وفي كل جوانبها مادية كانت أو روحية.

مـن أجل ذلك نقدم هذا الكتيب إلـى القارئ الكريم على أمل أن نثير اهتمامه وتفكيره في القضايا التي يثيرها هذا العصر، والتعرف على موقف الإسلام منها.

وتختلف هذه الطبعة عن سـابقتها التي صـدرت عام ١٩٩٩ في إضافـة موضوعيـن همـا: (الموقف الإسـلامي من العولمـة)، وقد أضفناه إلى الفصل الأول، أما الموضوع الثاني فهو: (إعادة بناء الثقة بين العالم الإسلامي والغرب)، وجعلناه فصلا ثانيا بعنوان (الإسلام والغـرب)، والموضـوع الأول كان محاضـرة ألقيـت بالألمانية في مؤتمـر عقد في فيينا عام ٢٠٠٥م، والثاني كان محاضرة ألقيت في المعهد السويدي بالإسكندرية عام ٢٠٠٤م.

أما بقية الموضوعات فلم يطرأ عليها أي تغيير.

ونظـرًا إلى أن الموضوعات الواردة في هذا الكتيب قد كتبت في فترات متباعدة وفي مناسـبات مختلفة فإن القارئ الكريم سيلاحظ أن هناك تكرارًا لبعض الأفكار الواردة في بعض فصول هذا الكتاب.

ولـم نـرد أن نغير منها شـيئا بالحـذف أو الإضافـة حفاظًا على خصوصية المناسبة التي كانت دافعًا لكتابة كل موضوع.

ونرجو أن يكون في هذا الكتيب فائدة لقارئ أو نفع لباحث.

والله من وراء القصد

أ.د / محمود حمدي زقزوق

الفصل الأول

الإسلام في عصر العولمة[١]

(١)

لقد درج البعض في عالمنا الإسلامي على إبداء تخوفهم وفزعهم بشكل واضح عند ظهور أي تيار فكري جديد أو مذهب اقتصادي أو نظرية سياسية أو غير ذلك من تيارات تهب علينا من الشرق أو من الغرب. ومن منطلق خشيتهم على القيم الدينية وحماية المسلمين من أخطار تلك التيارات يتجهون ابتداء إلى رفض هذا التيار أو ذاك لما يمثله - في نظرهم - من غزو فكري أو اقتصادي أو غير ذلك، وقد يميلون إلى الاعتقاد بأن هذا الغزو يمثل أحد فصول مخطط مرسوم بعناية للقضاء على الإسلام والهوية الإسلامية.

وفي المقابل نجد فريقًا آخر في عالمنا الإسلامي يتقبل كل ما يأتي من الشرق أو من الغرب دون تمحيص، ويتحمس له، ويتهم الرافضين بالجهل والتخلف والرجعية، فكل ما يأتي من البلاد المتقدمة - في نظر هذا الفريق - لابد أن يكون أيضًا متضمنًا لأسباب التقدم والرقي.

ويحدث في كثير من الأحيان أن يتصارع هذان الفريقان: الرافض بإطلاق والمتقبل بإطلاق، ويهدرون في مناقشات عقيمة الكثير من الجهد والوقت في جدل لا طائل من ورائه، ومن الأمثلة على ذلك الموقف من الحضارة الغربية بصفة عامة أو الموقف من الدراسات الاستشراقية في الغرب، أو الموقف في السنوات الأخيرة من قضية العولمة، وغيرها من قضايا أخرى.

---

(١) نشر هذا المقال في صحيفة الأهرام فى ١٩٩٩/٥/٧م.

ويمثــل هذان الفريقان – على الرغم من تباعد ما بينهما – نظرة أحادية الجانب لا تريد أن تســتوعب القضايا المطروحة على بساط البحث بكل ما لها وما عليها بطريقة موضوعية.

ومــن هنــا فنحــن – ابتداء – لســنا مــع أو ضد العولمــة، ولكننا مــع النظرة النقدية الواعيــة للعولمة ولغيرها من التيــارات الوافدة، وأعتقد أن الضرورة تحتم أن يكون للمسلمين نظرتهم النقدية التي تتعمــق القضايا بكل أبعادها، وتحللها مــن جميع جوانبها، وتخط لنفسها طريقًا لا يتجاهل الواقع من ناحية، ولا يندفع دون وعي نحو دعوة جديدة من ناحية أخرى.

أولا: الإسلام كدين ليس تيارًا فكريًا أو ظاهرة وقتية حتى يخشى من التيارات الفكرية الوافدة. إنه دين له جذور ضاربة في أعماق الكيان الإسلامي، وأصول راسخة لا تستطيع أن تنال منها التيارات الوقتية الطارئة. ولا يخشى على هذا الدين من أية تيارات داخلية أو خارجية مهما كانت قوتها طالما فهم المسلمون هذا الدين فهمًا صحيحًا، وأدركوا إدراكًا واعيًا أهدافه النبيلة وغاياته السامية وجوهره الحقيقي.

ثانيًا: العولمة واقع لا يجدي معه أسلوب الرفض. إنه تيار بدأ بالمجال الاقتصادي وامتد إلى المجال السياسي والمجال الثقافي وهذا الواقع يعد حقيقة ماثلة أمامنا لا مجال لإنكارها.

ثالثا: لا يجوز لنا أن نتجاهل أننا لا نعيش وحدنا في هذا العالم، وأننا نعيش الآن في عصر ثورة الاتصالات والمعلومات، والثورة التكنولوجية، وفي عصر السماوات المفتوحة، وهذا يعني أنه لا مجال للانعزال أو التقوقع.

وإذا كانــت العولمة تهدف إلى إزالة الحواجز الزمانية والمكانية

والثقافية والسياسية والاقتصادية بين الأمم والشعوب، وتحاول بطرق مختلفة فرض قيم معينة وحضارة معينة هي قيم الحضارة الغربية، أو قيم الأقوياء، فإن ذلك لا ينبغي أن يصيبنا بالفزع وفقدان التوازن لأن ذلك لن يجدي فتيلاً، ولن يتيح لنا الفرصة للتفكير السليم، فنحن - كما سبق أن أشرت - أمام واقع، وواجبنا هو أن نتعامل معه.

وهذا الواقع ليس كله شرًا، وليس كله خيرًا، ومن هنا ينبغي التعامل معه على هذا الأساس.

ومن الواضح أن العولمة تشتمل على عناصر جوهرية، كما تشتمل على عناصر أخرى مصاحبة، ولكنها أصبحت تحاصر الناس في كل مكان في العالم عن يمينهم وشمالهم، ومن أمامهم ومن خلفهم، ويتمثل ذلك - على سبيل المثال لا الحصر - في انتشار المأكولات والمشروبات السريعة وعلى رأسها الهامبورجر والكوكاكولا، والملبوسات مثل الجينز، والبرامج والأفلام والفنون المختلفة - الجيد منها والرديء - ووسائل الترفيه المختلفة.. إلخ.

ولكن الشيء الأهم في ذلك كله هو ما تحمله العولمة في طياتها من الترويج لأنماط معينة في العلاقات الأسرية والاجتماعية والجنسية السائدة في الغرب - المصدر الأول للعولمة، وليس بخاف على أحد أننا إذا أغلقنا الأبواب والنوافذ أمام هذا السيل الجارف من العولمة فإننا لن نستطيع أن نمنع وصول ذلك إلى المواطنين عن طريق الأقمار الصناعية والدش وشاشات التليفزيون، والإنترنت. ومن أجل ذلك قلنا إننا أمام واقع لا بد من التفكير في التعامل معه على نحو سليم.

إن العولمة - في رأينا - تمثل بالنسبة للمسلمين دعوة غير

مباشـرة إلى ممارسـة النقـد الذاتي ليعيـدوا النظر في حسـاباتهم، ويعيدوا ترتيب البيت من الداخل، وهذه الدعوة تأتي بطبيعة الحال دون قصـد من أصحاب العولمة، وقد يـرى البعض أن العولمة تمثل اسـتفزازًا للمسلمين، ونرى أنه استفزاز مفيد إذا أحسن المسلمون التعامل معه بأسلوب عقلاني بعيد عن التشنج والانفعال.

وإذا كنـا هنـا بصـدد الحديث عـن الإسـلام والعولمـة فإننا لن نستطيع - بطبيعة الحال - أن نفصل القول في كل جوانب العولمة، فهذا التفصيل له مجال آخر. ومن أجل ذلك سنركز فيما يلي بإيجاز شـديد على بعض العناصر الجوهرية فـي العولمة، وبخاصة في أهم جوانبها الاقتصادية والسياسـية والثقافية، والموقف الإسـلامي من ذلك كله.

أمـا الجانب الاقتصادي فإنه يعد أبـرز مجالات العولمة، وتتمثل العولمة في هذا المجال في حرية السـوق وما يرتبط بذلك من إزالة الحواجـز، وفتـح أبـواب التبـادل دون عوائق، وتكويـن التكتلات الاقتصادية الكبرى.... إلخ.

وإذا جاز لنا أن نبدي وجهة نظر عامة - غير متخصصة - في هذا الصدد فإننا نعتقد أن العولمة الاقتصادية ينبغي أن تحمل المسلمين على الاسـتفادة مما قامت عليه من تكتـلات اقتصادية، وهذا يعني أن عليهـم أن يتجهوا دون إبطاء إلـى تكوين تكتل اقتصادي عربي، وتكتل اقتصادي إسـلامي، والمشـاركة في تكتلات أخرى إقليمية ودوليـة، وعندمـا ينجحـون في هذا السـبيل فلن تكـون هناك على الأرجـح مخاطر ذات بال من جانب العولمـة الاقتصادية على العالم الإسلامي.

وإذا واجهنا القوة الاقتصادية بقوة اقتصادية مقابلة فإننا سنكون

مشــاركين في العولمة وليس مجرد تابعين للغير، وبالتالي سيكون لنــا تأثيرنا الذي لا يمكــن تجاهله على اقتصــاد العولمة وتصحيح مســارها، فالقضية - في رأينا - تدور حول أســلوب التعامل مع هذا الواقع الجديد والتفاعل معه بطريقة ســليمة، أما إذا تجاهلنا الواقع واكتفينا بعبارات الرفض والشــجب والإدانة والاســتنكار لأساليب الهيمنة والســيطرة وفرض النظم الغربية.. إلخ فإننا بذلك ســنظل ندور حول أنفسنا مكتفين بدفاع الحناجر، وهذا أمر لا يرضاه مسلم عاقل، ولســنا في حاجة إلى التأكيد على أن العالم الإســلامي يملك كل أســباب القــوة الاقتصاديــة، وكل ما يحتاجه هــو الإرادة الفاعلة لتحقيق ذلك.

أمــا العولمة في المجال السياســي فإن أبرز مــا يصادفنا فيها هو الديمقراطيــة وحقوق الإنســان والتعددية السياســية. والذي يفهم الإســلام فهمًــا حقيقيًا يتضــح له أن الإســلام بما اشــتمل عليه من قيم وتعاليم قد ســبق العولمة في هذا المجال، ورســخ قيم الشورى وحقوق الإنسان والتعددية، وعلى الرغم من ذلك نجد من بين أبناء المســلمين من يتصدى لرفض الديمقراطية بوصفها استيرادًا غربيًا أو مفهومًا أجنبيًا.

والواقع أن الإســلام حين قرر الشورى فإنه قد أرسى قاعدة مبدئية ملزمة لا يجوز التنصل منها، ولكنه في الوقت نفسه ترك للمسلمين حرية اختيار الشــكل الذي تطبق فيه الشــورى بما يتناســب مع كل عصر وقد تكون الصورة المناســبة هــي الصورة الحالية المتمثلة في المجالــس النيابية المنتخبــة انتخابًا حرًا مباشــرًا وقد تكون صورة أخرى حسب ظروف كل عصر.

أما حقوق الإنســان فإن الإسلام كان أشــد حرصًا على ترسيخها

فـي النفـوس وتطبيقها فـي الواقع، فقـد كرم الله الإنسـان - مطلق إنسـان - وسـاوى بيـن النـاس جميعًا بصـرف النظر عـن أعراقهم وأجناسـهم وألوانهم ومعتقداتهـم، وأمر بإقامة موازيـن العدل بين البشـر، وتمثلـت مقاصد الشـريعة الإسـلامية في حمايـة الأنفس والعقائـد والعقول والأموال والأعراض، ويتصل بذلك حقوق أخرى كثيـرة لم تعرفها البشـرية إلا في العصر الحديـث، ومن هنا فإنه لا ينبغي أن نخشى أو نتخوف من تيار العولمة المطالب بالديمقراطية وحقوق الإنسان.

أما التعددية السياسـية فإنها لا ينبغي أن تؤخذ من جانبها السلبي، فإنه إذا كان الإسلام قد أباح لنا الاجتهاد في أمور الدين، فمن باب أولى فإنه يبيحه في أمور الدنيا، وقد وجه النبي ﷺ إلى ذلك حين قال: (أنتم أعلم بأمور دنياكم) (صحيح مسلم).

والاجتهـاد يعنـي وجهـات نظـر متعـددة، وقـد جعل الإسـلام للمجتهـد إذا اجتهـد وأخطأ أجرًا واحـدًا، وإذا أصـاب فله أجران، حفزًا لنا على الاجتهاد والتمسـك به، وأوضح مثال على ذلك تعدد المذاهب الفقهية.

فالتعددية السياسية إذن ليست بدعة أو أمرًا مرفوضًا في الإسلام، وإنما هي وسـيلة اجتهادية للوصول إلى أفضل السبل لتنمية الحياة في جميع المجالات، ولا يجوز لنا أن ننسـى أن ذلك كله محوط في الإسـلام بسـياج منيع يتمثل في منظومة القيم الأخلاقية التي قررها الإسلام، وفي القاعدة النبوية المعروفة: (لا ضرر ولا ضرار).

وإذا كان الأمـر كذلـك فإن الأجـدر بنا - نحن المسـلمين - أن نكون مشاركين ومؤثرين تأثيرًا إيجابيًا في ترسيخ قيم الديمقراطية وحقـوق الإنسـان والتعدديـة السياسـية، ومـن خـلال مشـاركتنا

الإيجابية نستطيع أن يكون لنا دور فاعل في تجنب كل السلبيات التي تنحرف بهذه القيم عن مسارها الأخلاقي السليم، أما العولمة في المجال الثقافي والتي تعني أن تكون هناك ثقافة عالمية من شأنها أن تهدد الخصوصيات الثقافية للأمم والشعوب فإن ذلك ربما يكون أهم اعتراض يطرح على الساحة الإسلامية، وقد يعد أهم التحديات التي تواجه الهوية الإسلامية.

ولكن الأمر في حاجة إلى شيء من التأمل، فالإسلام دين متفتح لا يرفض ثقافة معينة لمجرد كونها أجنبية، وإنما ينظر فيها ويفحصها بعناية ويأخذ منها ما يفيده في مسيرته الحضارية، ويؤكد ذلك قول النبي ﷺ: (الحكمة ضالة المؤمن أني وجدها أخذها) (رواه الترمذي وابن ماجه) والأثر المشهور «اطلبوا العلم ولو في الصين».

أي ولو كان في يد من لا يدينون بدينكم، أو بمعنى آخر: ولو كان في أبعد مكان في الدنيا. وقد استفاد المسلمون عندما أرادوا بناء حضارتهم من كل الثقافات التي كانت قائمة حينذاك، وفي هذا الصدد يرى الفيلسوف ابن رشد أن الشرع يوجب الاطلاع على كتب القدماء، ويدخل في ذلك بطبيعة الحال الاطلاع على كل جديد في مستقبل الأيام.

يقول ابن رشد في هذا الصدد: «ننظر في الذي قالوه من ذلك وما أثبتوه في كتبهم. فما كان منها موافقًا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم».

بهذه النظرة النقدية كان ابن رشد ينظر إلى الثقافات الأخرى، ونحن مطالبون أيضًا في عصرنا الحاضر أن نعمل عقولنا فيما يرد إلينا أو يقدم لنا من ثقافات العصر، وأن نأخذ منها ما يفيدنا في

مسـيرتنا فالإسـلام قد جاء لمصلحة الإنسـان، ولا يمكن أن يرفض ثقافة نافعة فيها مصلحة للبشر، وبهذا الموقف النقدي يمكن لنا أن نحافظ على هويتنا الثقافية، وفي الوقت نفسه لا ننعزل عن عصرنا، ولا عـن ثقافته، وإنما نتعامـل معها كواقع، ونتفاعـل معها بصورة إيجابية، ونتجاوب مع كل ما يحقق المصلحة للمجتمع.

فالعقلية الإسلامية يفترض فيها أنها عقلية مرنة ليست جامدة أو متزمتـة، ولدينا من رصيدنا الديني والحضاري ما يمثل سـياجًا قويًا يحمي أجيالنا من أية تيارات سلبية.

ولسـنا بدعًا بين الأمم عندما نعمل على تجنب السـلبيات التي قـد يكـون لها تأثير ضـار علـى هويتنـا الثقافية. فالـدول الكبرى أيضًـا تعمل على الحفاظ على هويتها الثقافية. ومنذ سـنوات قليلة أصدرت فرنسـا تشريعًا لحماية اللغة الفرنسية وتحريرها من سيادة المصطلحـات والمفاهيـم الأجنبية. والحفاظ علـى الهوية الثقافية الإسـلامية وحماية أبناء المسـلمين من خطر الذوبـان في أية ثقافة أخرى يكون بتحصينهم بثقافة إسلامية رشيدة تحرك المياه الراكدة في مجتمعاتنا الإسـلامية، وتؤدي إلى تغيير العقليات لتنطلق الأمة الإسلامية إلى آفاق التقدم والارتقاء.

فالثقافـة السـكونية أو ثقافـة المحفوظـات والترديـد - بتعبير المرحوم الدكتور/ زكي نجيب محمود - لن تستطيع أن تغير شيئًا من واقع هـذه المجتمعات، والتالي لن تسـتطيع أن توفر أية حماية ثقافية للأجيال الجديدة في عصر العولمة.

إن ما تحتاجه الأمة هو ثقافة التغيير والإبداع التي تستلهم قدرتها على التغيير من القانون القرآني الثابت:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١)

إن الأمر بيدنا – نحن المسلمين – وعلينا أن نختار لأنفسنا الطريق القويم المحقق للأهداف، وعلينا أن ندرك أن الإسلام منذ اللحظة الأولى كان ولا يزال دعوة عالمية للناس جميعًا. ومن هنا لفت نظرهم إلى وحدة الأصل الإنساني. فالناس جميعًا إخوة. وإذا كانوا مختلفين في أجناسهم وأعراقهم ومعتقداتهم فإنهم – على الرغم من ذلك – ينتسبون جميعًا إلى أصل إنساني واحد. وهذه الاختلافات – في ضوء هذه الوحدة الإنسانية الراسخة – من شأنها أن تكون منطلقا للتعارف والتآلف والتعاون، لا للتنازع والتخاصم والشقاق – كما يقرر القرآن الكريم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾
(الحجرات: ١٣)

وهكذا كانت دعوة الإسلام دعوة عالمية إلى الأخوة الإنسانية في كل زمان ومكان.

ويمكن القول بأن الإسلام يعد دين العولمة الحقيقية، وإن كان هذا القول لن يروق لفريقين على طرفي نقيض، أحدهما سيعتبر ذلك محاولة لأسلمة العولمة، وثانيهما سيعده دعوة إلى تغريب الإسلام. وكلا الفريقين جاهز بشعاراته لخوض معركة وهمية.

وتجنبًا لسوء الفهم بحسن نية أو بسوء نية يكفي أن نشير في هذا الصدد إلى فروق جوهرية بين العولمة الإسلامية والعولمة الجديدة، فالعولمة الإسلامية هدفها نشر القيم الإنسانية والمبادئ الأخلاقية، والحفاظ علي الكرامة الإنسانية لكل البشر، وتأكيد حق كل إنسان في الحرية والمساواة، وحماية الأنفس والمعتقدات والعقول والأموال والأعراض، وإقامة موازين العدل بين الناس، وصيانة مؤسسة الأسرة، واحترام المرأة، ومنع الظلم والاستغلال في كل أشكاله وصوره.

أما العولمة الجديدة فإنه على الرغم مما تنطوي عليه من عناصر إيجابيـة مقبولة لا يمكن إنكارها فإنها تنطوي أيضًا علي استغلال وقهـر للإنسـان من حيث هو إنسـان من جانب الشـركات العالمية الكبرى التي لا هدف لها إلا الربح علي حسـاب كل القيم والأخلاق والمعتقدات.

وإذا كانت العولمـة الجديدة تركز علي حريـة الفرد فإنها تصل فـي ذلك إلى المدى الذي يتحرر فيه هذا الفرد من كل قيود الأخلاق والديـن والأعـراف المَرْعيّـة والوصول به إلى مرحلـة العدمية، وفي النهايـة يصبح أسـيرًا لـكل ما يعرض عليـه وتلاحقه به الشـركات العالمية الكبرى التي تسـتغله أسـوأ اسـتغلال بمـا تنتجه وتروج له مـن سـلع اسـتهلاكية أو ترفيهية لا تـدع للفرد مجـالًا للتفكير في شـيء آخر، وتصيبه بالخواء الداخلي. ومـن هنا فإن الواجب الديني والإنسـاني يحتم علينا أن نشارك مشـاركة فعالة ومؤثرة في العولمة الجديـدة، وهـذا يعني أن نعمـل جاهدين علـى الحد مـن اندفاعها المدمر لجوهر الإنسان وأن نعمل كذلك على تعديل مسارها وتقويم توجهاتها من أجل مصلحة الإنسان، مطلق إنسان، وإذا لم نفعل فإننا نكـون قـد تخلينا عن مسـئوليتنا، وارتضينا لأنفسـنا أن نجلس في مقاعد المتفرجين نشاهد ما يعرضه الآخرون علينا شئنا أم أبينا.

فهل يليق بالمسـلمين فـي عالم اليوم ـ وقد بلـغ عددهم خمس سـكان العالـم ـ أن يكتفوا بموقـف المتفرج في المسـرح. تعجبه بعض المشـاهد فتتهلل أساريره، ولا تعجبه بعض المشاهد الأخرى فيقطب جبينه ويمط شفتيه امتعاضًا.

إن العالـم يسـير من حولنا بسـرعة مذهلـة، والمتغيـرات على الساحة الدولية لا تكف عجلتها عن الدوران. وكل يوم يمضي يزيد

من اتســاع الفجوة بين المســلمين وبين العالم المتقدم. ولا خلاص لنـا إلا بالأخذ بكل أسـاليب التطـور العلمي والتقنـي والحضاري، والعمل الجاد المنتج على جميع المسـتويات، والمشـاركة الفعالة فـي تقرير مصير هذا العالم الذي نعيش فيه والإسـهام في اسـتعادة التوازن المفقود في حضارة العصر وإلا فلسنا جديرين بالحياة. ولم يعد لصياح الحناجر ورفع الشعارات الجوفاء أي معنى.

لقد أضاع المسـلمون الكثير من عمر الزمن في تفاهات الأمور، والآخرون يصارعون في عظائم الأمور، والغالبية من المسـلمين غير واعين بمتغيرات العصر، وغير مدركين لأبعاد المخاطر التي تحيط بهم مـن كل جانب؛ لأنهم مشـغولون بقضايا هامشـية، ومهتمون ببعض المظاهر الشكلية في الدين، والآخرون يزلزلون في جذورهم وهم لا يشعرون.

إن الأمـر جد خطيـر، وعلى مفكري المسـلمين فـي كل مكان إلا يكفـوا عـن الدعوة إلى إيقـاظ النائمين وتنبيـه الغافلين لتنهض الأمة وتشـارك في مسيرة التقدم على المستويين المادي والروحي، وتحتل مكانها اللائق بها بين الأمم.

ولا ينفـي ذلـك ـ بطبيعة الحـال ـ أن هنـاك دولًا إسـلامية رائدة فـي مقدمتهـا مصر تعمل جاهـدة من أجل البحث عـن مخرج لأزمة العالم الإسلامي، بتقديم النموذج الأمثل في التنمية الشاملة، وفتح الأبواب للتعاون والتنسيق والتكامل في جميع المجالات.

والأمل كبير في أن تجتاز الأمة الإسـلامية أزمتها الراهنة، وتكلل جهود المخلصين من أبنائها بالنجاح، من أجل غد مشـرق تنعم فيه الأمة كلها بالأمن والاسـتقرار والتقدم والازدهار، وتشـارك بفاعلية في سلام هذا العالم الذي هو عالمنا جميعًا.

الإسلام في عصر العولمة[٢]

(٢)

الغايات والوسائل

في مقال للدكتـور الرخاوي حول (العولمـة ونوعية الحياة)[٣] أشـار إلـى أنه يريد أن يخطو خطـوة أبعد مما ذهبـت إليه في مقالي السابق حول (الإسلام في عصر العولمة)، ويرى سيادته أن الحديث الـذي كثر حول العولمـة يركز على الوسـائل دون الغايات، ويهتم بسـرعةِ وكـمِّ الإنجاز على حسـاب نـوع وامتداد الوجـود. ويؤكد على ضرورة اكتشـاف وتأكيد حقيقة جوهرية في الوجود البشـري تقـول إن وجود الله يعد ضرورة حيوية ليكون البشـر بشـرًا وبذلك تختلـف الحياة كل الاختـلاف إذا كان الله موجودًا، عنها إن لم يكن موجودًا.. إلخ.

ونظـرًا لأن هـذا التعليق قد يعطـي انطباعًا بأننا قـد ركَّزنا على الوسـائل وكـمِّ الإنجـاز ولم نلتفـت إلـى القضية المحوريـة -التي تتلخص في الوعي بوجود الله الذي به ترتقي حياتنا- فإنه كان لا بد مـن العودة مرة أخرى لتوضيح وجهـة نظرنا على نحوٍ لا يدع مجالاً للالتباس أو سوء الفهم.

إننـا إذا كنا نتحدث عن (الإسـلام في عصر العولمة) فالسـؤال هو: عن أي إسـلام نتحدث؟ إن من المسلَّمات أن الإسلام هو الدين الذي يتمحور حول قضية أساسية هي وجود الله ووحدانيته وضرورة الوعـي بهذه الحقيقة التي تصوغ حياة الإنسـان كلهـا من ألفها إلى

---

(٢) نشر هذا المقال في صحيفة الأهرام في ١٩٩٩/٥/٢٨م.

(٣) جريدة الأهرام: ١٩٩٩/٥/١٤م.

يائهـا . ومن هنا فإنه إذا لم يكن ذلك فـي الاعتبار عند الحديث عن الإسلام فإن الحديث يصبح عن إسلام آخر لا يمتّ إلى الإسلام الذي نؤمـن به بأية صلة . فهذه إذن قضية أساسـية مفروغ منها ولا خلاف عليها على الصعيد الإسلامي ، ولا يجوز أن يكون عليها خلاف على الإطـلاق ، وحتى لا يُفهم كلامي على غيـر وجهه الصحيح حرصتُ في بداية مقالي السـابق على ذكر بعض الملاحظات المبدئية وكان أولهـا التأكيد على أن الإسـلام دين لا يُخشَـى عليه مـن أية تيارات فكريـة ما دام قد فهمه المسـلمون فهمًا صحيحًـا ، وأدركوا إدراكًا واعيًا أهدافه النبيلة وغاياته السامية وجوهره الحقيقي . فماذا يكون جوهر الإسـلام الحقيقي إذا لم يكن قائمًا على حقيقة وجود الله وما يترتب على هذه الحقيقة من مسئوليات ؟

كمـا أكدتُ فـي المقال على ضـرورة تحصين أبناء المسـلمين بثقافة إسلامية رشيدة للحفاظ على الهوية الثقافية الإسلامية . فماذا تكون هذه الهوية الثقافية الإسـلامية بدون حقيقة وجود الله والوعي بهذه الحقيقة ؟

وفي إشارتي إلى الفروق بين العولمة الإسلامية والعولمة الجديدة ذكرتُ في المقال أن هذه الأخيرة تنطوي على استغلال وقهر للإنسان (من حيث هو إنسان) على حساب كل القيم والأخلاق والمعتقدات وأشرت أيضًا في صراحة ووضوح إلى أنه «إذا كانت العولمة الجديدة تركز علـى حرية الفرد فإنها تصل في ذلك إلـى المدى الذي يتحرر فيـه الفرد من كل قيود الأخلاق والدين والأعراف المرعية والوصول بـه إلى مرحلة العدمية» كما تصيبه بالخواء الداخلي . ومن أجل ذلك أكـدت علـى «أن الواجـب الديني والإنسـاني حتم علينا أن نشـارك مشاركة فعالة ومؤثرة في العولمة الجديدة للحدّ من اندفاعها المدمر

لجوهر الإِنسان، وأن نعمل على تعديل مسارها وتقويم توجهاتها من أجل مصلحة الإِنسان، مطلق إنسان.

وإذا لم نشارك فكيف نصحح وكيف نفيد الآخرين وننقذهم من أوهامهم؟ وإذا جمدنا وتقوقعنا فكيف نضمن حماية هويتنا الإِسلامية في مواجهة التيارات الجارفة للعولمة على جميع الأصعدة؟

وإذا كنا قد أشرنا إلى خطر تدمير جوهر الإِنسان، فما هو هذا الجوهر إذا لم يكن مشتملاً على الجانب الإِيماني؟

لأن جوهر الإِنسان لا يتمثل في حياته المادية البحتة التي يشترك فيها مع بقية الحيوانات وإنما يتمثل في الجانب الروحي الذي به أصبح الإِنسان إنسانًا بعد أن نفخ الله فيه -عند خلقه له- من روحه سبحانه، وطبع في فطرته الإِيمانَ بوجوده ووحدانيته، كما يشير القرآن الكريم إلى ذلك في صراحة ووضوح[٤].

كل هذه الحقائق الإِسلامية الأساسية لم تغب عن ذهننا، بل كانت في حقيقة الأمر هي منطلقنا في الحديث عن (الإِسلام في عصر العولمة) وبالتالي فنحن ننطلق من الغايات وليس من الوسائل.

ولكن الإِسلام في تركيزه على الغايات لا يهمل الوسائل ولا يجعل منها منها أمرًا هامشيًا. فهو دين لا يفصل الدنيا عن الدين ولا يفصل الجانب المادي عن الجانب الروحي.

ومن أجل ذلك كان اهتمامنا في المقال -بالإِضافة إلى الأسس التي لا خلاف عليها- هو التنبيه إلى تخلف المسلمين في الجوانب الحياتية الأخرى وفي مقدمتها الجوانب الاقتصادية والسياسية

---

(٤) كما ورد - على سبيل المثال في آية الميثاق:
﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٧٢)

والثقافيــة والعلميــة. وهذا التخلف لا يرضاه الإســلام لأتباعه، فقد أكد الإســلام على أن للإنسان مهمة أساســية في هذا الوجود تتمثل فــي إعمار الأرض بالمعنى الشــامل لهذا الإعمــار، كما يقول القرآن الكريم:

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾

(هود: ٦١)

أي: طلب منكم عمارتها.

وعمــارة الكون وصنع الحضارة فيــه لا تكون إلا بالعلم الذي هو فريضة إســلامية لا تقل عن أية فريضة إسلامية أخرى، وقد سلَّح الله الإنسانَ قبل أن يُهبطه إلى الأرض- بهذا العلم الذي يحتاجه، والذي عجزت الملائكة عن معرفته؛ لأنها ليســت في حاجة إليه وليس من مسئولياتها، وإنما يقع في إطار مسئولية الإنسان.

وقــد أهمل المســلمون هــذه المســئولية الحضارية فــي القرون الأخيــرة -بعد أن كانــوا حين قيامهم بالتزاماتها ســادة هذا العالم- فتخلفوا في الجانب المادي تخلفًا واضحًا لكل ذي عينين.

ولعلِّي لا أكون مبالغًا إذا قلت إن الأمر قد وصل بالمســلمين في عصرنــا الحاضر إلى حــد أن أصبحوا فيه أضيع من الأيتام على مأدبة اللئــام، كما أصيبت الإرادة الإســلامية بالشــلل بحيــث أصبح حال العالم الإســلامي يكاد يكون مثل حــال المريض الذي يعرف علته، ويعرف الدواء الذي يقضي على هذه العلة ولكن ليست لديه الإرادة لتناول هذا الدواء.

وأبلــغ دليــل على عجــز العالم الإســلامي ما نراه اليــوم من عدم قدرة المســلمين على المشاركة بفاعلية في القضايا المصيرية التي تخصهم، وهذا واضح وضوح الشمس في قضية كوسوفا ومن قبلها

البوسنة وما يحدث اليوم في سوريا وليبيا وغيرهما، وذلك بالإضافة إلى مناطق أخرى في العالم الإسلامي التي يقرر الآخرون وحدهم مصيرها في غيبة المسلمين.

إن الأمر بالنسبة للمسلمين -كما قلت في مقالي السابق- جد خطير، والتيارات الجارفة -إذا لم يتيقظوا ويدركوا أبعاد المخاطر التي تواجههم- قد تكتسحهم في طريقها وتقتلعهم من جذورهم، تلك الجذور التي نحرص كل الحرص على ترسيخها في النفوس وتعميقها في العقول وهي الجذور الإيمانية.

ولكن الإيمان -كما قال صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام- ليس بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل، وإن قومًا غرتهم الأماني وقالوا نحسن الظن بالله، وكذبوا، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل، فهناك علاقة وثيقة بين الغايات والوسائل؛ فالغايات بمثابة الأساس، والوسائل -لتحقيق هذه الغايات- بمثابة البناء، ولن يُغني أساسٌ ما لم يكن فوقه بناءٌ، ولن يثبت بناءٌ ما لم يكن له أساس.

إننا إذ نحافظ على هويتنا الحضارية المبنية على الإيمان بالله فإننا في الوقت نفسه مطالَبون بالالتزام بتنفيذ الأمر الإلهي بإعمار الكون بكل أبعاد هذا الإعمار ماديًا ومعنويًا. فكيف لنا أن ننفذ هذا الأمر الإلهي إذا لم تكن لدينا الوسائل لتنفيذه؟ وأين هي الوسائل التي في يد المسلمين كي يحققوا هذا الأمر الإلهي؟

إن العصر الذي نعيش فيه لم يعد فيه مكانٌ للضعفاء، والمسلمون اليوم يشكلون خُمس سكان العالم، وعددهم يعادل ضعف سكان أوروبا وأمريكا الشمالية، ولكنهم أصبحوا في عالم اليوم -كما وصفهم د/ أحمد كمال أبو المجد- «أمة حائرة في عالم محيِّر»، وأدَّى هذا الوضعُ إلى ارتباكم وانقلاب هرم الأولويات لديهم ولا بد

من وضع حد لهذا كله.

ولـن يحدث ذلك إلا بالأخذ بالأسـباب والتسـلح بكل أسـلحة العصر حتى يكسـب المسـلمون احترام الآخرين، ويتعاملوا معهم علـى أسـاس مـن الندية والاحتـرام المتبـادل، وحينئذ يسـتطيع المسلمون أن يشاركوا في عصر العولمة في توجيه سفينة العالم إلى شاطئ النجاة. وبدون ذلك لن يُسمَع لهم صوت.

إن المسـلمين في عصرنا الحاضر في حاجة ماسـة إلى ممارسـة النقـد الذاتـي، وضـرورة التحديـد الدقيق لمـا يريـدون، وكذلك التحديد للوسـائل التي توصلهم إلى ما يريدون، والعمل المتواصل لتحقيق ذلك حتى يكونوا جديرين بالانتساب إلى الإسلام الذي هو دين الوسطية والاعتدال والتوازن.

وهكـذا فإننـا إذا كنا في أشـد الحاجة إلـى الغايـات لنَبني على أساسـها فنحن في الوقت نفسه في أشـد الحاجة إلى الوسائل لنبني بها. وأي خلل في ذلك لن يكون في صالح الأمة الإسلامية.

ومـن هنـا فـإن مسـئولية كل القادرين علـى التوجيه فـي العالم الإسـلامي أن لا يملوا من العمل على إيقاظ النائمين وتنبيه الغافلين حتـى تنهض الأمة وتجد طريقها إلى الخلاص، وتشـارك بفاعلية في صنع مسـتقبل هذا العالـم الذي نحن جزء منـه، وأرجو أن أكون قد أوضحتُ وجهة نظري بما فيه الكفاية.

الموقف الإسلامي من العولمة[5]

تمهيد:

إن الأحداث المتسارعة والتغيرات المتلاحقة التي يشهدها عالمنا المعاصر، والتي يمكن إرجاعها إلى العولمة، كثيرا ما يفهمها الغرب ويفسرها على نحو يختلف بطبيعة الحال عن فهم العالم الإسلامي لها وتفسيره إياها؛ ذلك لأن العولمة لها وجوه متعددة، فهي تعني من منظور القوى المهيمنة في زماننا: الرخاء، إن لم يكن الرفاهية، وفرصَ تنميةٍ كثيرة، وحاضرا مضمونا، ومستقبلا واعدا بالنجاح، وفي المقابل تعني العولمة بالنسبة إلى المحرومين من القوة والفقراء حاضرا يخيم عليه اليأس والإحباط، وحياة لا مستقبل لها من الناحية العملية.

وقبل أن أتناول الموقف الإسلامي من العولمة، أود أولا أن أشير بإيجاز إلى العواقب العامة الناجمة عن العولمة بالنسبة لعالمنا، فمن شأن ذلك أن يساعد على تفهم الموقف الإسلامي من العولمة.

١ - العواقب العامة للعولمة:

تعِدُ إيديولوجية العولمة الجميعَ بمستقبل ينعمون فيه بالحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، ولكن الممارسة هنا تبدو مختلفة كل الاختلاف، وبناء على ذلك فإن هناك شيئا واحدا مؤكدا وهو أن العولمة الحالية بدلا من أن تؤدي إلى بناء النظام العالمي الجديد الموعود، فإنها أدت إلى تعميق مشكلات عالمنا وتعقُّدها، وهذا أمر يظهر بوضوح في تعميق الفجوة المتعاظمة باستمرار بين الفقراء والأغنياء، وفي التدمير المتزايد للبيئة، وزيادة انتشار الإرهاب بمختلف صوره وأشكاله.

---

(٥) محاضرة ألقيت في الأصل بالألمانية في مؤتمر (الإسلام في عالم متعدد) بالعاصمة النمساوية فيينا (١٤-١٦ نوفمبر ٢٠٠٥م)

ولكـن احتجاجـات معارضي العولمة لا تنصب أساسـا على تيار العولمة ذاته، بقدر ما تنصب على الشكل الحالي للعولمة، وهو بلا شك شكل لا بد من تغييره، فهو يشكك في إنجازات حضارية مهمة حققتها البشرية عبر تاريخها الطويل.

ويـدور الأمر هنا بصفة خاصة حول الجهـود التي بذلت من أجل حقوق الإنسان العامة والديمقراطية والحرية والسلام، والبشرية إذ تجد نفسـها الآن في مواجهة واقع يتمثـل في أنها في عصر العولمة تكـوّن جماعـة عالمية تتسـم بالتعدديـة، فإنها تحتاج إلـى قواعد جديدة للتعايش وإلى معايير فكرية مطابقة لها، يتمكنها أن تتعامل بشكل صحيح مع هذا الواقع.

٢- الموقف الإسلامي من العولمة:

(أ) كلمة عامة:

بعـد أن تكيـف المسـلمون، وبخاصة فـي القـرن الماضي، مع مختلف التيارات السياسـية للثقافة الغربية، أحسوا منذ وقت طويل بضـرورة إيجاد مخـرج يتمثل فـي تجديد ثقافتهم. وهـم مقتنعون بـأن التعددية الثقافية هي الحـل الطبيعي. ويرجع ذلك إلى أن ثقافة المسـلمين قد قامـت منذ بدايـة تاريخهم على أسـاس من الموقف الإسـلامي المبدئي المتمثل في احترام الثقافـات الأخرى. والتزامًا بهذا النهج تطورت ثقافة المسـلمين من خلال التفاعل والحوار مع الشعوب الأخرى التي التقت بها.

ولهذا أكد الفيلسـوف العربي ابن رشـد الذي عرفه الغرب باسـم أفيرويس (Averroes) ضرورة دراسة آراء وكتب الأمم الأخرى دراسة متأنيـة، واعتبر التعرف عليها واجبًا شـرعيًا، وقال إن علينا أن نأخذ منهـا ما كان موافقًا للحق، وحذّر مـن الأخذ بما كان منها غير موافق

للحق، ولكنه نبه في الوقت نفسه إلى أن علينا أن نعذر الأمم الأخرى فيما نختلف معهم فيه نظرًا لأنهم عاشوا في ظروف مختلفة.

والمسلمون في حوارهم مع الثقافات الأخرى يستندون إلى المبادئ التالية:

١- إنهم ينظرون إلى علوم الثقافات الأخرى وظروفها الاجتماعية -على نهج ابن رشد- نظرةً متسامحةً، وفي الوقت نفسه نظرة نقدية ويقبلون منها إنجازاتها الإيجابية، ويرفضون ما يتبينون أنه سلبي.

٢- إنهم يتمسكون بمبدأ ضرورة الحفاظ على الهوية الثقافية؛ ولذلك فهم يهتمون اهتمامًا كبيرًا بالتمسك بخصائص ثقافتهم، وحمايتها والحفاظ عليها؛ لأن ثقافتهم تمكنهم من تحقيق ذاتهم وصيانة حريتهم.

٣- يؤمن المسلمون طبقًا لتعاليم ثقافتهم بضرورة التعددية الدينية والثقافية على مستوى العالم قاطبة؛ ولهذا فهم مستعدون للتعاون مع كل الأمم في جميع مجالات السياسة والثقافة والاقتصاد، وهذا أمر ضروري على وجه الخصوص لترسيخ أسس السلام والحفاظ عليه.

٤- ومن هنا فالمسلمون يرفضون دعوى الصدام الحتمي بين الثقافات، ويؤمنون بدلًا من ذلك بضرورة الحوار الثقافي والديني على كل المستويات. وانطلاقًا من هذا الموقف يؤمن المسلمون بإمكان التعايش الإيجابي بين البشر جميعًا، متمسكين في ذلك بمبدأ عدم التمييز بين الناس على أساس من العرق، أو الثقافة، أو الدين، أو الجنس، أو اللون. والمسلمون، الذين يتسلحون بما أشرنا إليه من مبادئ التسامح والتفكير النقدي، مستعدون اليوم لأن يناقشوا على نحو إيجابي مطالب ومتطلبات عصر العولمة. إنهم،

علـى الرغم من كل مـا عرفوه من خيبة الآمـال، لا يزالون يحترمون قيم الثقافة الأوروبية، وهم يعتبرون العولمة من حيث المبدأ ظاهرة تقدميــة؛ لأنها يمكن أن تتيــح فرصة فريدة لمعرفة الأمم والثقافات عــن كثب، وللتعــاون معها في تكاتف من أجـل النهوض بالمصالح الخاصة للشـعوب ومصالح البشرية جمعاء. فهذا مطلب تطالب به مبادئ الثقافة الإسلامية.

ومن هنا فإن المسلمين لا يرفضون العولمة مسبقًا لأنها قادمة من الغرب وفضلًا عن ذلك فقد تأثروا بها تأثرًا شـديدًا بالفعل، ولكننا مــن أجل صالــح ثقافتنا، أي من أجل حريتنا وحقوقنا الإنسـانية، لا نريد أن نقبلها برمتها قبول العبيد. إننا نحتفظ لأنفســنا بالحق في أن ننظر إليها مبدئيًا على نحو إيجابي.

وجدير بالذكر أن ابن رشد -كما هو معلوم- قد أحدث في العصر الوسـيط بآرائه أثرًا قويًا. بل إن فلسـفته أسهمت إسهامًا حاسمًا في الوصول إلى النهضة الأوروبية (الرينســانس)، وما من شــك في أن المســلمين بثقافتهم المنفتحة على العالم قد شـاركوا بنصيبهم في ظهور العولمة أخيرًا.

وأيًـا كانــت المؤثـرات التـي أثـرت في التطـورات فـي العصر الحديث وصــولًا إلى هيمنة العولمة، فالحقيقــة الواقعة هي أنها قد غيرت الحياة تغييرًا حاســمًا في شــتى أنحاء العالم، ولكن العولمة بشكلها الحالي، كما لوحظ بصفة عامة على نحو متزايد، قد اتضح أنها قــوة هدامة في أغلب جوانبها؛ لأنها تدمــر التضامن بين الناس تدميــرًا متزايــدًا. وليس هنــاك من يعرف هذا أفضل من المســلمين الذين يجري فوق ظهورهم الصراع بوحشية وبلا رحمة على سيطرة العولمة سيطرة شمولية.

وينبغـي أن يُنظَـر إلـى موقف المسـلمين، إن أريـد فهمه الفهم الصحيـح، متصـلًا اتصـالًا وثيقًـا بوضعهـم. وهذا أمـر مهم؛ لأن المسـلمين يمثلون نحو خمس سـكان العالم، ولهم بناءً على ذلك -سواء اعترف المرءُ بذلك أو لم يعترف- أثر لا يستهان به في مصير عالمنا وهم ليسوا وحدهم في إدانتهم العولمة المهيمنة حاليًا والتي تهدد بهدم عالمنا؛ فهي مسـتمرة دون رحمة في تدمير البيئة، كما أنهـا بصفة خاصة تدفع بالفقراء على نحو متزايد إلى مناطق معزولة كئيبة، فما هو الرد الذي نتوقعه على ذلك؟

ولعلـه قد اتضح مما تقـدم أن الصراعـات المحتدمة في عصرنا الحاضر، ليسـت في الواقع حروبًا بيـن ثقافات وأديان، على الرغم من أن المتطرفين الذين لا ضمائر لهم في المعسكرين يدَّعون ذلك، جريًا وراء مصالحهم المادية ما في ذلك أدنى شك. والحق أنها غير ذلك، فهي صراعات هيمنة طائشـة -على سبيل المثال الصراعات حـول احتياطيـات النفـط- والضحية فـي الجانبين هـي الثقافة أو الحضارة بمعنى أوسع.

ونظرًا للكوارث السياسـية والطبيعيـة المتوالية، لا يكاد يكون من الممكن الاستمرار -عن طريق دعاية الترويج لمُثُل العولمة- في جعـل المعايير المزدوجة والمظالم الفاحشـة لهذا (النظام العالمي الجديد) أمرًا مقبولًا، فهاهو نسيج هذا النوع من العولمة يتهرأ على نحو متزايد. ويرجع السـبب في ذلك أولًا وقبل كل شـيء آخر إلى ممارسة أسلوب لا يزال إلى اليوم منحازًا إلى جانب واحد فيما يسمى بـ(محاربة الإرهاب) وعن طريق هذه الاسـتراتيجية التي لا تأخذ في اعتبارها أسـباب الإرهاب بل أعراضه الظاهرية فحسب يتم في نهاية

المطاف محو الرقابة الديموقراطية على عمل الحكومات[٦].

والتغيُّرات على كل مستويات الحياة العامة تغيرات لا مفرَّ من حدوثها.. ولكن دولة الرفاهية -التي لم تدعْ إلَّا موضعًا ضئيلًا كل الضآلة للمبادرة الخاصة والاستقلال الذاتي- قد تأكد أنها في نهاية المطاف حل فاشل، والنظام الاقتصادي السائد الذي لا يمثل في الواقع إلا حقَّ الأقوياء يؤدي إلى القضاء على التضامن بين البشر، وما هذا الطريق في نهاية المطاف إلا طريق مسدود يعني انحسار الفطرة الأخلاقية في الإِنسان.

إننا جميعًا قد أصبحنا داخل شبكة العولمة فهل أحيط بنا في داخلها فلا مخرجٍ لنا منها، ولا جدوى من أية محاولة للاحتجاج، أم أن العولمة هي حقًا ما تدعيه لنفسها، بمعنى أنها على وجه التحديد عملية تجميع وتجديد حضاري خلاق؟ هل في مقدور العولمة بالفعل أن تدلنا على طريق جديد للمسئولية الذاتية والمسئولية العالمية؟ هل تعني العولمة إمكانات جديدة للتعارف بين الشعوب والتنافس المثمر بينها؟

إن من الثابت حتى الآن أن حياتنا وأعمالنا اليومية تجري في إطار شبكات عولمية محكمة وفي ظل تبعية شديدة تشمل الجميع وهناك تجاوز للحدود الزمانية والمكانية بين مختلف البلاد والدوائر الثقافية يتزايد تزايدًا مطردًا وهناك بالفعل كما قيل[٧] نوع من «فقدان حواجز المكان والعمل ورأس المال».

والسؤال هو: هل يعني تجميع الشعوب والثقافات هذا في عصر النزعة العولمية بالضرورة ظهور المجتمع الضخم الشامل الذي

---

(٦) الإنترنت: حروب القرن الواحد والعشرين.

(٧) (الإنترنت: أوليريشر بيكر عولمية وعولمة Ulrich Becker, Globalismus und Globalisierung».

ينسلخ في نهاية الأمر خطوة خطوة عن تراث الإنسانية الثقافي وقيمه؟

إنه أيًا ما كان الأمر فالمسلمون مصممون على التمسك بثقافتهم وقيمها ويؤمن المسلمون طبقًا لدينهم بأن شعوب العالم في نهاية المطاف مكلفة -بحكم عقائدها الدينية- وآيات الوحي المنزلة المختلفة - بالسعي إلى غاية نهائية واحدة هي السلام، وهي تبلغ هذه الغاية من خلال سبل متنوعة لبناء ثقافاتها المختلفة.

وأود فيما يلي أن أعرض بإيجاز الموقف الإسلامي إزاء تحديات العولمة بأبعادها: السياسية والإعلامية والاقتصادية والثقافية.

(ب) أبعاد العولمة:

١ - البعد السياسي:

كثيرًا ما نسمع أن الغرب يريد أن ينشر قيم الديموقراطية والتعددية السياسية وحقوق الإنسان في العالم بصفة عامة وفي البلاد الإسلامية بصفة خاصة، وذلك على النحو الذي تحققت به هذه القيم في العالم الغربي، والغربيون في هذا الصدد يتصورون أن هذه القيم تمثل بالنسبة للمسلمين شيئًا جديدًا كل الجدة وفي هذا السياق يحلو لهم أن يتكلموا عن «قيمنا» أي عن «القيم الغربية» وهم في تصورهم هذا يريدون عن طريق هذه القيم أن يدخلوا التحضر إلى العالم الإسلامي الذي يظنونه في حالة من الهمجية البربرية.

وكان الغربيون فيما مضى من الزمان يحلو لهم أن يصفوا البلاد الأجنبية التي لا يفهمون لغتها وعادتها بأنها بربرية وكان اتخاذ هذا الموقف ممكنًا طالما كانت هذه البلاد بعيدة، ولم تقم بينها وبينهم علاقات وثيقة أما اليوم، وقد تقاربت المسافات وأصبح العالم كله

يكوّن ما يسمى بقرية كونية، فلم تعد مثل هذه الإدانة السطحية الفجة مقبولة. وعلى من ألِفوها أن يبدلوها ـ مهما صعب عليهم ذلك ـ بالسعي إلى تفاهم متبادل قائم على التسامح والاحترام، وهذا أمر في صالح الأطراف كلها.

والمسلمون على أي حال لا يرفضون إطلاقًا قيم الغرب السياسية بل يفهمونها حق الفهم. ويرجع ذلك أيضًا إلى أن هذه القيم نفسها ـ وإن كانت في سياق ثقافي مختلف ـ مألوفة تمامًا لديهم، فالديموقراطية معروفة لدى المسلمين باسم الشورى، والتعددية الدينية والثقافية مكوّن حاسم من مكوّنات ثقافتهم من بداية تاريخهم، وحماية حقوق الإنسان العامة تعد من المقاصد الرئيسة للشريعة الإسلامية، وتتمثل هذه المقاصد في ضمان حماية النفس والعقل والدين والمال والنسل.

وإذا كانت هذه المبادئ قد اعتراها الوهن للأسف نتيجة للضعف الذي طرأ على الحضارة الإسلامية فإن ذلك لا يعني أن هذه القيم لم يعد لها وجود لديهم.

وليس لدى المسلمين اعتراض على أن يذكرهم الغرب بهذه القيم الأساسية، ولكنهم يرفضون تمامًا أن تفرض عليهم بالقوة كما حدث في السنوات الأخيرة في كل من أفغانستان والعراق ـ على سبيل المثال ـ فالأخلاق، كما هو معلوم، لا تفرض بالإكراه بل بالإقناع والرضا.

والأمر المؤسف حقًا أن العلاقة بين القيم والتربة الثقافية التي تنمو فيها يتم تجاهلها، فالقيم الأساسية نفسها موجودة بشكل أو بآخر في كل الأديان والثقافات ولكن تحقُّقَها يتم في سياق هذه أو تلك من الثقافات التي لا يمكن أن تنفصل عنها.

٢- البعد الإعلامي:

من الملحوظ أن انعدام الفهم وقلة الاحترام حيال الثقافة الإسلامية يظهران على نحو خاص وبشكل واضح في البعد الخاص بالرأي العام العالمي الذي تسيطر عليه وسائل الإعلام الغربية الواسعة الانتشار. فالمرء لا يجد فيها أي اعتبار للحقيقة الواقعة المتمثلة في أن حرص المسلمين على حقوق الإنسان لا يقل لديهم أهمية عن تلك التي يلقاها في الغرب.

إن المسلمين يشعرون بأن تصوير وسائل الإعلام الغربية للاعتداءات العسكرية على البلاد الإسلامية يتم في صورة مشوشة ويشكل جزءا من استراتيجية قهر منظم فلا يكاد أحد يتكلم عن ضحايا هذه الحروب العدوانية الذين لا يحصيهم عد ولا عن تجريدهم من الإنسانية، وإن تكلم فعلى نحو عابر، ولا أحد يهتم بأسباب امتهان كرامة أناس من البشر واعتبارهم من الإرهابيين. وبدلًا من ذلك يوصف المعتدون بأنهم ضحايا.

وقد أدى هذا الوضع في النهاية على نحو أو آخر إلى الاشتباه في المسلمين جميعًا واعتبارهم إرهابيين. على الرغم من أن عددًا ضئيلًا كل الضآلة منهم فقط ينزع إلى التطرف، وهذه حقيقة واقعة يمكن أن نلاحظها فى كل الأديان ولم تؤد هذه التفرقة العنصرية إلا إلى زيادة الإرهاب. وقليلًا ما يستتر الهجوم على الإسلام في وسائل الإعلام الغربية. وهكذا يهاجمون دينًا من الأديان العالمية الكبيرة الذي أدان منذ البداية كل نوع من أنواع العنف وعلّم السلام ومارسه منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان.

ولم يحقق دعاة «محاربة الإرهاب» - الذين يتجاهلون أسبابه - إلا زيادة عدد الإرهابيين فى أقصر وقت أضعافًا مضاعفة.

٣- البعد الاقتصادي:

من المشــكلات الرئيســة التي تواجهها البلاد الإسلامية مشكلة ضعــف الاقتصــاد، ذلــك الضعف الــذي لا يتيح لهــم إلا القليل من الإمكانات للدفاع عن مصالحهم.

والبعد الاقتصادي للعولمــة يتمثل في تكوين تكتلات اقتصادية كبيــرة وهيئــات متعــددة الجنســيات، أو متعديــة الجنســيات، ومؤسســات مالية دولية تمســك بيديها اقتصاد العالم، والمنظومة العولمية المهيمنة تزيد الأغنياء غنى وتزيد الفقراء فقرًا.

ولا يمكننــا فيما يخص المســلمين أن نحمل الغرب الذنب كله فيما يعانونه من مشــكلات اقتصادية، فعلى المســلمين أن يكثفوا جهدهــم لتحقيق تعــاون أفضل بين بلادهم بعضهــا البعض، فحجم التجــارة بيــن البلاد الإســلامية حتى الآن لا يزيد على نســبة ٨٪ من تجارتها مع البلاد الأخرى.

ولا شك في أن تحقيق تعاون اقتصادي أفضل بين البلاد الإسلامية من شــأنه أن يمكنها من إجراء الإصلاحات السياســية الملحة، ولن يكــون ذلك في صالحها وحدهــا؛ لأنها عندما تصبح شــريكًا على قدم المســاواة مع الشــركاء الدوليين ســتكون قادرة على أن تتعاون بشــكل فعال في بناء نظــام عالمي عادل يمكنــه أن يتصدى بنجاح أكبر للكوارث السياسية والبيئية التي تهدد العالم.

٤- البعد الثقافي:

من البديهي أن قيام المسلمين بتطوير الاقتصاد في بلادهم مسألة لها أهمية حاســمة، ولكن الحفاظ على هويتهم الثقافية تعد مســألة أكثر أهمية، ولهذا فإن المسلمين عندما يدافعون عن حقوقهم وعن حريتهم فإنهم يضعون في أولويات اهتماماتهم المسائل التي تمس

البعـد الثقافي للعولمة، وإذا كانت العولمة تهدف إلى تصدير القيم الغربيـة إلى العالم الإسـلامي، فإن المسـلمين يحتفظون – في كل الأحـوال – لأنفسـهم بالحق في أن ينظروا إلـى هذا الموضوع نظرة فاحصـة نقدية، بحيث لا يأخذون مما جاء فيها إلا ما كان في رأيهم موافقًـا للحق، على نحو ما أوصى به ابن رشـد قبـل أكثر من ثمانية قرون من الزمان.

ولكل ثقافة سـماتها الخاصة التي تميزها عن الثقافات الأخرى، وحيوية الثقافات رهن بتنوعها وتفردها.

وأيًا مـا كان الأمر فإن المسـلمين مصممون علـى الحفاظ على خصوصيتهم الثقافية ويسعون إلى الدفاع عنها. وينطبق هذا بخاصة على التعاليم الأخلاقية الراسخة في دينهم؛ ولهذا فهم غير مستعدين لأن يسـتوردوا إلى بلادهـم الآراء الغربية الخاصة بالحياة الجنسـية المتحللـة مـن القيـود وبالاعتـراف بالمثليين الجنسـيين، وهم لا يرضخـون لأي إكـراه في هذا الشـأن، ويرون أن الحرية الشـخصية وحقوق الإنسان تحول دون أن يخضعوا ثقافيًا لصالح ثقافة أخرى.

إن حرية الإنسـان الحديث اللامحدودة يتبيـن إن عاجلًا أو آجلًا أنهـا وهمية وفارغـة؛ فهي تقود عنـد المبالغة إلى طريق مسـدود، والحريـة الحقيقيـة – أي ما يحرر الإنسـان لذاتـه – لا توجد إلا في الالتزام، وهذا هو على أي حال المفهوم الإسـلامي للحرية، وحدود الحرية تقوم على فطرة الإنسـان الأخلاقية التـي تنبهنا إليها تعاليم الدين.

والمسـلمون فـي هذا الصـدد يتمسـكون بالحفاظ علـى كيان الأسرة الذي تهدده العولمة الحالية.

وعلى الرغم من أن المسلمين مصممون على التمسك بثقافتهم

وقيمها، فإنهم يقدرون في الحاضر كما كانوا يقدرون في الماضي إنجازات الثقافة الغربية حين تدافع عن حقوق الإنسان العامة والديمقراطية والتعددية السياسية، والمسلمون يشعرون بخيبة الأمل عندما يرون الغرب لا يحترم ثقافتهم، بل يعمل في كل مكان على فرض قيمه، ويرى المسلمون أن هذا الموقف ينتهك قيم التعددية السياسية والثقافية.

إن حيوية الثقافات هي التي تجعل البشرية - عن طريق تبادل الأفكار والتنافس فيما بينها - قادرة على القيام بأعظم الإنجازات، فالشعوب - طبقًا للتعاليم الإسلامية - قد خُلقت ليعرف بعضها بعضًا - ولتعرف على هذا النحو نفسها أيضًا.

ويُعد هذا التعرف المتبادل بين الشعوب - على أساس من التسامح والاستعداد لتفهم كل جانب للطرف الآخر - شرطًا أوليًا ضروريًا للتوصل إلى تعايش إيجابي وتعاون مشترك بين الجميع في عصر العولمة، ومن خلال ذلك يمكن وضع حد للكوارث البيئية والسياسية المتراكمة حاليًا، كما يمكن الحفاظ على السلام العالمي وحمايته.

الفصل الثاني

الإسلام والغرب

إعادة بناء الثقة بين العالم الإسلامي والغرب

تمهيد:

تهتم بعض الجهات في الغرب، وبخاصة في أوروبا، بموضوع العلاقة بين العالم الإسلامي والغرب. ومن مظاهر هذا الاهتمام أنه تم في الفترة الأخيرة عقد مؤتمر بمقر المعهد السويدي في الإسكندرية لبحث موضوع (إعادة بناء الثقة بين العالم الإسلامي والغرب).

وقد دعيت للمشاركة في هذا المؤتمر بمحاضرة بعنوان: (كيف يمكن إعادة بناء الثقة بين العالم الإسلامي والغرب؟)[٨]. ولعل مجرد طرح هذا الموضوع على هذا النحو يوحي بأن هناك ثقة كانت قائمة بين العالم الإسلامي والغرب، وأنها قد انهارت أو تصدعت نتيجة ظروف طارئة. والمطلوب هو البحث عن أفضل السبل لاستعادة هذه الثقة. وحتى يمكن الإجابة عن السؤال المطروح، فإن من الملائم أن نقسم هذا الموضوع إلى العناصر الآتية:

١- ما هي الشروط الأساسية بصفة عامة لبناء الثقة بين مجموعتين بشريتين؟

٢- هل كانت هناك ثقة أصلًا بين العالم الإسلامي والغرب، وعلى أي أساس قامت؟

٣- ما هي الأسباب التي أدت إلى ضياع هذه الثقة بين الجانبين؟

٤- ما هي معوقات استعادة بناء الثقة بين الجانبين؟

---

(٨) عقد المؤتمر المشار إليه في الفترة من ٣ - ٧ / ٥ / ٢٠٠٤م.

٥- كيف يمكن إعادة بناء الثقة بين العالم الإسلامي والغرب؟

وفيما يلي تفصيل القول في الإجابة عن هذه الأسئلة الخمسة[٩]:

أولاً: شروط بناء الثقة:

يتوقف بناء الثقة بين أي مجموعتين بشريتين بصفة عامة على عدة أمور هامة نلخصها فيما يلي:

أ- الاعتراف بالآخر، والتعامل معه على أساس من الندية والمساواة. ويعد ذلك شرطًا أساسيًا لا يمكن التخلي عنه على الإطلاق. فالبديل لذلك هو إلغاء الآخر واعتبار وجوده مثل العدم سواء بسواء. وبالتالي لا يكون هناك طرفان يعترف كل منهما بالآخر، بل يكون هناك طرف واحد يأمر فيطاع أمره، ويملي إرادته كما يشاء دون السماح بأي اعتراض. وفي هذه الحالة لن يكون هناك حديث عن شيء اسمه بناء الثقة بين الجانبين المعنيين.

ب- الاحترام المتبادل: لا يكفي إطلاقًا مجرد الاعتراف بالآخر، بل يجب -إذا أريد أن يكون هناك حد أدنى من الثقة بين الجانبين- أن يكون هناك احترام متبادل بينهما. وهذا يعني أن على كل طرف أن يحترم الآخر، أي يحترم ثقافته ودينه وعاداته وتقاليده وخصوصياته الحضارية. وبصفة عامة يحترم حقوقه الإنسانية.

وهذا الاحترام المتبادل يعد البداية الحقيقية لأي حوار أو تفاهم أو تعاون بين الجانبين. مع الأخذ في الاعتبار بأنه إذا كان الاحترام المتبادل لا يعني القبول بمواقف الآخر فإنه من ناحية أخرى يعني

---

(٩) الآراء الواردة في هذه المحاضرة تعبر عن رأي شخصي ولا تعكس وجهات نظر رسمية.

استعداد كل طرف للاستماع إلى الطرف الآخر، والتفكير بروح بناءة فيما يُعْرَض من آراء وما يوجه من نقد.

ج- الحوار بين الجانبين: يعد الحوار بين الأطراف المعنية نتيجة طبيعية للاعتراف بالآخر والاحترام المتبادل بينهما. والحوار من شأنه أن يهيئ الفرصة لتعرف كل جانب على الطرف الآخر، وتفهم مواقفه وظروفه وحضارته وعقيدته وخصوصياته الحضارية.

ومن جانب آخر يساعد هذا الحوار على إزالة الكثير من سوء الفهم والأحكام المسبقة والأفكار الخاطئة لدى كل طرف عن الطرف الآخر، كما يساعد على التعرف على ما يمكن أن يكون بين الجانبين من قواسم مشتركة سواء كانت تتعلق بالجوانب الحضارية أو الدينية أو التاريخية أو غيرها من جوانب أخرى يمكن استثمارها لما فيه مصلحة الطرفين.

د- التسامح مع الآخر: الحوار المشار إليه ليس أمرًا مقصودًا لذاته، وإنما هو السبيل القويم لما يترتب عليه من نتائج تتمثل في التسامح الذي يتيح الفرصة للتبادل الثقافي والفهم المشترك والتعايش الإِيجابي، الأمر الذي من شأنه أن يعمق جذور التعاون بين الجانبين في جميع المجالات.

هـ- التعاون المشترك: لا شك في أن توفر المناخ المشار إليه يجعل السبيل ممهدًا أمام بناء الثقة بين الجانبين ودعم أواصر التعاون بينهما. وهذا من شأنه أن يوسع آفاق هذا التعاون ليشمل ليس فقط ما يتعلق بالجانبين المعنيين، بل يتعدى ذلك إلى دوائر أوسع تشمل التعاون على إرساء دعائم السلام والاستقرار للعالم كله الذي هو عالمنا جميعًا.

ثانيًا: هل كانت هناك ثقة أصلًا بين العالم الإسلامي والغرب؟

أمـا النقطة الثانية التي نـود أن نبحثها فتتعلق بالسـؤال عما إذا كانت هناك أصلًا في الماضي ثقة قائمة بين العالم الإسلامي والغرب وعلـى أي أسـاس قامـت. ونحن في البدايـة نزعم أن هنـاك بالفعل -على الأقل في التصور الإسلامي- ثقة كانت قائمة، وكانت ترتكز على أسـس متينة. ومـن المفيد أن نتذكرهـا الآن لعلها تكون دافعًا للجانبين على تنشيطها والبناء عليها.

وقـد كانت هذه الثقة تقوم من وجهة نظرنا على أساسـين: ديني وثقافي. أما الأسـاس الديني فإن الإسلام -كما هو معروف- يطلب من المسلمين بكل صراحة ووضوح الاعتراف بكل الأديان السماوية السـابقة. ولا يجوز للمسلمين بناءً على ذلك أن يفرقوا بين الأنبياء مثل: موسى وعيسى ومحمد -عليهم السلام-:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾

(البقرة: ٢٨٥).

والقرآن يطلب من أتباع هذه الأديان المختلفة الابتعاد عن كل ما يجلب الشـقاق والنزاع، وضرورة التركيز على التنافس المثمر في مجال الخيرات

﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ

لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

(المائدة : ٤٨) .

وقد شعر المسلمون منذ البداية بالتضامن مع المسيحيين الذين ينتمون مثلهم إلى دين سماوي. وفي هذا الصدد يخبرنا القرآن الكريم بأن المسلمين قد أصابهم الحزن عندما وقعت معركة بين الفرس والروم الشرقيين انهزم فيها الروم المسيحيون على يد الفرس الوثنيين. وعندئذ خفف عليهم القرآن وقع هذه الصدمة مبشرًا بأن الروم سينتصرون في المرة القادمة

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

(الروم : ٢ – ٥) .

وقد جاءت هذه البشارة في القرآن في سورة تحمل اسم (الروم) . وقد حدث ذلك النصر الموعود كما أخبر القرآن. وفضلا عن ذلك فإن القرآن يبين لنا أن المسيحيين هم أقرب الناس مودة للمسلمين

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾

(المائدة : ٨٢) .

أما الأساس الثقافي فإنه عند التأمل الدقيق للتاريخ نستطيع أن نتبين بوضوح أن الحضارتين الأوروبية والإسلامية في نشأتهما

وتطورهمـا لـم يكونا في يوم من الأيام شـيئين منفصلين تمامًا. فقد قامت كل منهما على أسـاس من التفاعـل الثقافي المثمر وظلتا من خلالـه تتميـزان بالحيوية. وكانتا مـن أجل ذلـك قادرتين رغم كل الحـروب التـي دارت بينهما على البحث عن السـلام، والبحث في الوقت نفسه أيضًا عن الحماية الفعالة لذاتيتهما.

فمن المعروف أن المسـلمين قد اهتموا منذ البداية بالحضارات الأخـرى اليونانيـة والفارسـية والهنديـة، ودرسـوا بصفـة خاصـة المؤلفـات الفلسـفية والعلمية اليونانيـة التي ترجموهـا إلى اللغة العربية وأثروها بتعليقات هامة. ومن خلال البحث المستقل في كل ما تعرفوا عليه من ثقافات اسـتطاعوا أن يضيفـوا أفكارًا وتصورات جديدة وأن تكون لهم ثقافتهم وفلسفتهم الخاصة بهم.

وأوروبـا من جانبها قامت خلال القرون الثلاثة الأولى من الألفية الثانية بترجمة مؤلفات العلماء والفلاسفة العرب إلى اللغة اللاتينية. ومـن الجديـر بالذكر في هذا الصدد أن أوروبـا قد تعرفت لأول مرة علـى الفلسـفة اليونانية عن طريـق المؤلفات العربيـة. وفيما بعد فـي النصف الثاني من القرن الخامس عشـر بـدأ الأوروبيون ترجمة المؤلفات اليونانية مباشرة من اليونانية إلى اللغة اللاتينية.

ولا ننسـى في هذا الصـدد أن الأندلس وجزيـرة صقلية قد مثلتا قناتيـن هامتيـن لنقل الثقافة الإسـلامية إلى أوروبـا. والأمر الجدير بالذكر فـي هذا المقام أن الطلاب الأوروبييـن كانوا يتوافدون على الأندلـس في العصور الوسـطى للدراسـة في الجامعات الإسـلامية، وبالمثل لا يزال الطلاب المسـلمون يلتحقون بالجامعات الأوروبية منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى الآن دون انقطاع.

ومـن كل ذلـك يتضح أن الثقة التـي كانت قائمة بيـن الجانبين

كانت تعتمد على أسس دينية وثقافية متينة على الرغم من كل الحروب والصراعات التي حدثت بين الجانبين.

ثالثًا: أسباب ضياع الثقة بين الجانبين:

إننا لا نستطيع أن نقول إن هذه الثقة قد انهارت تمامًا بين الجانبين ولم يعد لها وجود، ولكننا لا ننكر أنها قد اهتزت بصورة واضحة. ويرجع ذلك إلى أسباب عديدة يرجع بعضها إلى أسباب تاريخية قديمة ويرجع بعضها الآخر إلى ظروف وعوامل حديثة. ويمكن تلخيص أهم هذه الأسباب والعوامل في النقاط التالية:

١- الفتح العربي للأندلس على الرغم من أن هذا الفتح قد جاء معه بتأثيرات حضارية بالغة الأهمية لأوروبا ساعدتها في مسيرتها في الانتقال من العصر الوسيط إلى عصر النهضة والعصر الحديث.

٢- الحروب الصليبية وما صحبها من تخريب وتقتيل ونهب وسلب.

٣- الغزو العثماني للبلقان وحصار العاصمة النمساوية فيينا.

٤- الغزو الاستعماري لبلاد العالم الإسلامي في العصر الحديث من جانب كل من إنجلترا وفرنسا على وجه الخصوص وبعض البلاد الأوروبية الأخرى.

٥- الوعد الإنجليزي لليهود عام ١٩١٧م بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين على حساب سكانها الفلسطينيين الذين لا يزالون مشردين في مختلف دول العالم ومحرومين من أبسط حقوق الإنسان.

٦- التحيز التام لإسرائيل في صراعها مع العرب بصفة عامة والفلسطينيين بصفة خاصة منذ عام ١٩٤٨م حتى الآن.

وعلى الرغم من مرور نحو سبعين عامًا على قضية الصراع العربي

الإسرائيلي فإن الغرب لم يتخذ خطوات حاسمة لإنهاء هذا الصراع، والغرب قادر على ذلك لو أراد، ولكن لعله لا يريد ذلك، ربما لإتاحة الفرصة لإسرائيل للاستيلاء على كامل الأرض الفلسطينية، وبالتالي لا يكون هناك حديث عن شيء اسمه القضية الفلسطينية.

ولا زلت أذكر عبارة قالها الفيلسوف الألماني المعروف (كارل ياسبرز) عقب حرب عام ١٩٦٧م بين العرب وإسرائيل، حيث قال حينذاك: «إننا لو تخلينا عن إسرائيل فإن هذا يعني أننا نتخلى عن الحضارة الغربية». ونحن لا نريد أن يتخلى الغرب عن إسرائيل وإنما نريد موقفًا متوازنًا يحقق العدل والكرامة الإنسانية للجميع.

٧- الحرب على العراق، تلك الحرب التي تجاوزت الشرعية الدولية وتجاهلت الأعراف المرعية والمواثيق الدولية، وبنيت على مجموعة من المزاعم التي ثبت عدم صحتها، وتبين أن هدف هذه الحرب هو الهيمنة والسيطرة على بترول العراق من ناحية، وحماية إسرائيل من ناحية أخرى.

٨- الترويج في الإعلام الغربي للربط بين الإسلام والإرهاب:

من الملاحظ -بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م- أن هناك اتجاهًا قويًا في الغرب يربط بين الإسلام والإرهاب. وحقيقة الأمر أن الإرهاب موجود في كل الحضارات، وأنه أصبح ظاهرة عالمية، ولم يكن في يوم من الأيام صناعة إسلامية.

والأمر الجدير بالذكر أن قدرًا كبيرًا من الإرهاب الحاصل اليوم من جانب بعض الجماعات التي تنسب نفسها للإسلام نتج عن احتضان الغرب للعناصر الخارجة عن القانون والمحكوم عليها بأحكام مختلفة في البلاد الإسلامية، الأمر الذي مكنها من التخطيط والتنظيم والتمويل لأعمالها الإرهابية.

والولايات المتحدة الأمريكية نفسها تعاونت مع زعيم تنظيم القاعدة، وأمدته بالمال والسلاح والتدريب لرجاله في حربها ضد الشيوعية في أفغانستان، كما احتضنت مفتي الجماعات المتطرفة في مصر ثم انقلبت عليه بعد ذلك وسجنته، وساعدت الولايات المتحدة الأمريكية على اتساع دائرة الإرهاب بفتح جبهة جديدة في العراق متجاوزة بذلك إرادة المجتمع الدولي. فالغرب إذن مسئول مسئولية أساسية عن انتشار الإرهاب اليوم على نحو مخيف.

ومن المعروف أن أوروبا نفسها -على سبيل المثال- قد عانت من الإرهاب الداخلي في النصف الثاني من القرن العشرين بصفة خاصة في سلسلة من العمليات الإرهابية من جانب جماعات معينة، لا يزال بعضها يمارس نشاطه حتى اليوم كما هو حادث في أيرلندا وإقليم الباسك في إسبانيا.

ولم تسلم الولايات المتحدة الأمريكية نفسها من الإرهاب الداخلي قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر. وحادث الهجوم على برج التجارة العالمي في أوكلاهوما خير دليل على ذلك، كما شهدت الساحة العالمية أعمالاً إرهابية أخرى في أماكن مختلفة. ومن الأمثلة على ذلك: إطلاق الغازات السامة في مترو الأنفاق في اليابان ومقتل رابين في إسرائيل، وهدم المسجد البابري الأثري في الهند على يد المتطرفين الهندوس، وغيرها من أعمال إرهابية لا تزال حاضرة في الأذهان.

إن الإسلام موجود منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان. وكما أن الأديان الأخرى غير مسئولة عن أي عمل إرهابي يقوم به بعض أتباعها فكذلك الإسلام غير مسئول عن أي عمل إرهابي يقوم به بعض المسلمين حتى وإن رفعوا أيضًا شعارات إسلامية.

إن الإرهاب لم يكن في السـابق، ولن يكون في المسـتقبل أيضًا سـمة مميزة للإسلام تميزه عن غيره من الأديان. لقد برهن الإسلام دائمًـا علـى قدرته على السـلام، ليـس فقط خلال القـرون العديدة التـي شـهدت عصر الازدهـار الحضاري للمسـلمين، بـل وفي كل عصور التاريخ الإسـلامي، وقدمت الحضارة الإسـلامية في الأندلس نموذجًـا يحتـذى به للتعايـش الإيجابي بين أتباع ديانـات التوحيد الثلاثة الإسلام والمسيحية واليهودية. وذلك على النقيض مما فعله الاسـتعمار الغربي فـي العصر الحديث من تخريب وتدمير وسـلب ونهـب لثـروات بلاد المسـلمين، وتطبيق لسياسـة (فرق تسـد) لضمان استمرار بقائه في احتلال تلك البلاد.

وهنـاك جانب آخر يتصل بموضوع الإرهاب وهو الخلط الواضح فـي التصـورات الغربية بين الإرهـاب وحق الشـعوب المظلومة في الدفاع عن حقوقها المشروعة. وهذا حق تكفله القوانين الدولية.

وانطلاقًا من هذا الخلط الغريب أصبح ينظر إلى الضحية على أنه إرهابي -كما هو الحال مع الشـعب الفلسطيني- وينظر إلى إرهاب الدولة -كما في حالة إسـرائيل- على أنه دفـاع عن النفس. وفضلًا عـن ذلك فإن الحرب على الإرهاب يسـاء اسـتغلالها وتتخذ سـتارًا لتخويف شعوب العالم من هذا الخطر المدمر للعالم كله حتى يظل العالـم يعيش تحت وطـأة الرعب الإرهابي، وذلـك من أجل تحقيق أطماع الهيمنة على العالم والاسـتيلاء على مصادر ثروات الشعوب النامية.

ومـن الطبيعي في ظل هذه الظروف المعقـدة أن يؤدي ذلك كله إلى ضياع الثقة بين العالم الإسلامي والغرب. ولكن العالم الإسلامي من جانب آخر يدرك تمامًا أنه لا يجوز تحميل الغرب ككل مسئولية

هذه الظروف جميعها. فهناك دول غربية لها وجهات نظر مختلفة، ومواقف معارضة لبعض هذه السياسات الغربية إزاء العالم الإسلامي. والحرب على العراق أقرب مثال على ذلك.

ومن هنا يمكن القول بأنه إذا كانت الثقة بين الجانبين قد تصدعت على نحو مخيف فإنه لم يتم القضاء عليها نهائيًا. والدليل على ذلك استمرار التواصل الثقافي بين العالم الإسلامي والغرب، والحوار الدائر بينهما في مجالات عديدة، الأمر الذي يجعل استعادة الثقة بين الجانبين أمرًا غير مستحيل.

رابعًا: معوقات استعادة بناء الثقة:

لا شك في أن الطريق لاستعادة الثقة بين الجانبين ليس طريقًا مفروشًا بالورود والرياحين فهناك عقبات حقيقية تعرقل جهود استعادة الثقة بين العالم الإسلامي والغرب ومن أهم هذه العقبات الأمور التالية:

١ - صورة العدو المتبادلة:

لا جدال في أن هذه الصورة السلبية المتبادلة كانت موجودة دائمًا بدرجات متفاوتة منذ أن بدأت الصراعات المسلحة بين الجانبين، ولكنها مع ذلك لم تكن أبدًا بهذا الحجم الذي وصلت إليه اليوم في عصر ثورة المعلومات والاتصالات والثورة التكنولوجية مما جعل نشر هذه الصورة السلبية على نطاق واسع أمرًا ليس له مثيل في أي عصر من عصور التاريخ.

لقد تعاون الغرب قبل نهاية الحرب الباردة مع الإسلام في مكافحة الشيوعية فإذا كان الغرب يمقت الشيوعية فإن الإسلام والشيوعية نقيضان لا يجتمعان ومن هنا كان التعاون بين الجانبين تعاونًا وثيقًا في هذا الصدد ولكن بعد انهيار الشيوعية وطرد الشيوعيين من

أفغانســتان تغيــر الموقف بنحو مائة وثمانين درجــة فقد بدأ الغرب يتحــدث عن صــورة العدو الأخضــر المتمثل في الإســلام بديلًا عن العدو الأحمر.

وبدأ الحديث على نطاق واسع عن الأصولية الإسلامية والإرهاب الإســلامي على الرغم من أن الإرهــاب ظاهرة عالمية وليس لها أدنى صلة بالإســلام كديــن وارتفعت أصــوات عديدة وظهــرت مؤلفات كثيــرة في الغرب تتحدث عن الخطر الإســلامي وبــدا الأمر كما لو أن العالم قد اســتيقظ فجأة ليرى أمامه دينًا جديدًا غريبًا يعمل على تهديد العالم، والغريب في الأمر أن الجماعات التي حظيت بالدعم الغربي وبخاصة الدعم الأمريكي في أفغانســتان لمحاربة الشيوعية هي نفســها التي انقلبت إلى جماعات إرهابية لأســباب سياســية لا صلة لها بالإسلام الذي هو دين السلام.

٢- التنبؤ بصراع الحضارات:

وتأكيــدًا ودعمًا لصورة العــدو المتبادلة راجت منذ العقد الأخير مــن القرن الماضي دعوى صدام الحضارات وتنبأ هنتجْتون بالصدام بين الحضارتين الإســلامية والغربية وهذا يعنــي أن إمكانية الصدام الحضــاري تفوق إمكانية الحــوار الحضاري، وأن الصــدام لا محالة قادم ويجب الاســتعدداد له بكل الوســائل ويذكرنا تنبؤ هنتنجتون بما ذهب إليه الفيلسوف الإنجليزي (توماس هوبز) من أن الإنسان ذئب بالنســبة لأخيه الإنسان، وأن الكل في حرب ضد الكل وبذلك يضع هنتنجتون مزيدًا من الزيت على النار لإشعال مزيد من الكراهية والتوجس والخوف من الإسلام في العالم الغربي.

وعلــى الرغم من أن هذه الدعوى لا تســتند إلى أســاس علمي أو واقعي يدعمها، فإن الترويج لها على نطاق واســع عن طريق وسائل

الإعـلام يمكن أن يجعلها تتحول بسـهولة إلى أن تصبح أمرًا واقعيًا وهـذا هو مكمن الخطـر فالترويج لهـذا الصدام الكونـي المزعوم يمكـن -كما يقول عالـم اللاهوت الألماني هانـز كونج- أن يعمل على خلق جو من الخوف والرعب يسـتخدمه أصحاب المصالح في تحقيق أغراضهم التي هي بالقطع أغراض مناقضة لجهود السلام.

ولنا هنا وقفة ضرورية تعقيبًا على دعوى صدام الحضارات:

إن الحضارات تشـكل التقدم المادي والروحي للإنسـانية -كما يقـول ألبـرت شفيتسـر أيضًـا- إنها تعني التسـامح وقبـول الآخر والانفتـاح علـى كل الحضارات والثقافات والأديـان ومن أجل ذلك فإنهـا تمثل حصـون الإنسـانية ضد النزاعـات العبثيـة والمدمرة، ولكنها بالقطع ليسـت سببًا لها، لأن هدف الحضارات الحقيقي هو بناء نظام يضمن للإنسانية العدل والأمن والاستقرار.

إن أسـباب النزاعات ليست -كما يزعم هنتنجتون- في اختلاف الحضـارات فالصدامات تنشـأ أيضًا داخل الحضـارة الواحدة مثلما حـدث ذلـك في الحربيـن العالميتين فـي النصـف الأول من القرن الماضي والأمر الجديـر بالذكر هنا أن ضحايا هاتين الحربين داخل الحضـارة الأوروبيـة الواحـدة قد زاد على سـتين مليونًا من البشـر وذلـك خلال نحو عشـر سـنوات فقط (مـن ١٩١٤م - ١٩١٨م) ومن (١٩٣٩م - ١٩٤٥م) في حين أن أعداد ضحايا الحروب التي دارت بين أوروبا والإسـلام على مدى أربعة عشر قرنًا من الزمان تعد بالنسبة إلى ذلك بمثابة قطرة في بحر، ولا وجه للمقارنة بينها وبين ضحايا الحربين العالميتين.

ومـن هنـا فإنه إذا حدثت صدامـات بين الحضـارات فإنه يتحتم البحث عن أسـباب أخرى لذلـك غير الحضـارات ذاتها فقد تكون

الأسباب متمثلة في السـعي للسيطرة على السياسة لبعض أصحاب المصالح، أو الهيمنة لبعض القوى العالمية على مقدرات العالم، أو السـعي للحصول على مصالح مادية أو غير ذلك من أسـباب أخرى مشابهة، كما هو ماثل للعيان في عالم اليوم.

والإسلام على كل حال دين يرفض دعوي الصدام بين الحضارات، ويدعو إلى الحوار بينها ويؤكد ذلك القرآن الكريم حين يتحدث عن الاختلافات بين الشعوب والعلاقات فيما بينها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾ (الحجرات: ١٣)

لقد أثبتت لنـا الحربان العالميتان في القرن الماضي مدي عبثية الحـروب؛ فالحـروب لا تحـل المشـكلات، بـل تؤدي إلـى تفاقم المشـكلات وإلـى تدميـر لا معنى لـه، وعلينا أن نتعلـم من دروس التاريخ حتى لا نكرر نفس الأخطاء مرة أخرى.

٣- التجاهل وعدم الاكتراث على الجانب الغربي:

يتعلق هـذا التجاهل بالأحـداث المتلاحقة في العالم الإسـلامي بصفـة خاصة، والأسـباب التي تقـف وراء حدوثهـا، والجهود التي يجـب أن تبذل لمواجهتهـا ونتائج هذا التجاهل تتمثل في المواقف الخاطئـة وسـوء الفهـم لعالمنا الـذي كان يفترض أن يكـون عالمًا جديـدًا وجذابًا، ولكنه في حقيقة الأمر صـار عالمًا مرعبًا ومخيفًا، وذلك بالنسبة لضحاياه على كل حال.

لقـد كان من نتيجـة هذا التجاهل وعدم الاكتـراث على الجانب الغربـي تلك الإبادة الجماعية التي حدثت للمسـلمين في البوسـنة في العقد الماضي في أماكن كانت تحميها قوات دولية وكان يمكن

منع تلك المذابح الجماعية لو كان هناك أدنى قدر من الاهتمام بمصير هؤلاء البشر.

وما يحدث اليوم في فلسطين من قتل وتشريد وتدمير للبشر والمنازل والمزارع و الأشجار وكل وسائل الحياة تحت سمع وبصر العالم، وبصفة خاصة تحت سمع وبصر القوى الفاعلة في العالم على الجانب الغربي، أمر يفوق التصور.

لقد تحركت كل هذه القوى الفاعلة لحماية سكان تيمور الشرقية وحماية استقلالها عن إندونيسيا فلماذا تتجاهل هذه القوى ثلاثة ملايين فلسطيني يعيشون في سجن كبير دون حماية دولية أليس هذا أمرًا يثير الكثير من علامات الاستفهام؟

٤- محاولة فرض العولمة بخيرها وشرها:

لا شك أن العولمة بجوانبها الاقتصادية والسياسية والثقافية تشتمل على بعض الإيجابيات ولكنها تشتمل في الوقت نفسه على بعض السلبيات ومن حق العالم الإسلامي -ولديه رصيد حضاري يعرفه التاريخ- أن يكون له الحق في اختيار ما يراه مناسبًا له من هذه العولمة، ومن حقه أيضًا أن يرفض ما لا يناسبه فهذا أبسط حقوق الإنسان.

ولكن هناك محاولات غربية لفرض النظم والقيم الغربية على العالم الإسلامي دون اكتراث بما إذا كان ذلك يتفق أو لا يتفق مع ما للمسلمين من معتقدات دينية وأخلاقية وتقاليد مرعية فالتمايز الحضاري أمر مقرر منذ فجر التاريخ ولا يجوز إجبار شعب من الشعوب على تبني قيم شعب آخر وعلى سبيل المثال يعاب على العالم الإسلامي محاربته للشذوذ الجنسي، ويراد له أن يوقف العمل بنصوص قطعية في القرآن الكريم، وغير ذلك من مطالب غربية أليس ذلك ضد حرية الإنسان وحقوقه فردًا كان أو جماعة؟

٥- استخدام القوة بدلًا من الحوار:

وقـد تجلى ذلـك بوضوح في حرب العراق وعلـى الرغم من كل مسـاوئ النظـام العراقي السـابق ورفضنا له، فليس هنـاك أي مبرر لاستخدام القوة ضد دولة ما دون تفويض بذلك من المنظمة الدولية وإلا فسـيصبح العالـم فوضى تتصرف كل دولة فيه كما تشـاء دون اكتراث بالقانون الدولي.

والحوار هو السـبيل القويم لحل المشـكلات، والعنف هو آخر دواء يمكـن اسـتخدامه، ولكـن بتصريح من المنظمـة الدولية وما يقال عن العراق يقال بالنسـبة لفلسـطين ففـي الوقت الذي يرفض فيه الرأي العام الغربي العمليات الاستشهادية الفلسطينية بوصفها إرهابًا ينبغي أن يقيم الغرب موازين العدل -وهو الذي يذكرنا دائمًا بحقوق الإنسان- فيوقف إرهاب دولة إسرائيل الذي يستخدم أحدث ما عرفته الآلة العسـكرية ضد شعب لا يملك إلا الحجارة والأسلحة الخفيفة.

خامسًا: إعادة بناء الثقة بين العالم الإسلامي والغرب:

وعلى الرغم من كل ما سـبق فإننا لسـنا مـع القطيعة مع الغرب على الإطلاق لقد أردنا فحسـب أن نضع بعض النقاط على الحروف دون مجامـلات فارغة لا تغني شـيئًا إننا في عصر أصبـح فيه العالم يعيـش في قرية كونية كبيرة -كما يقـال دائمًا- ومن هنا فنحن مع التقـارب مع الغرب ومـع الحوار والتعاون في جميـع المجالات من أجل خير هذا العالم الذي هو عالمنا جميعًا.

وأعتقـد أنه قد أصبح واضحًا مما عرضناه حتى الآن كيف يمكن إعادة بناء الثقة بين العالم الإسـلامي والغرب فالعقبات القائمة التي تحدثنا عنها بنبغي إزالتها حتى يمكن بناء الثقة على أسـس سـليمة

وإذا جاز لنا أن نجمل الشـروط التـي ينبغي مراعاتها عند إعادة بناء الثقة بين الجانبين فإننا ننبه إلى الأمور التالية:

١ - التخلي عن نظرة الاستعلاء إزاء الآخر:

والبعـد عن النظر إليه من منطلق الهيمنة وغطرسـة القوة، وهذا يعنـي الاحتـرام المتبـادل وتفهـم مواقف الطـرف الآخـر واحترام خصوصياته الحضارية على أساس من الندية والمساواة.

إن التعـرف الحقيقي على الآخر -ونعني هنا التعرف على العالم الإسـلامي من جانـب الغرب- وعلى حضارة المسـلمين من شـأنه أن يؤدي إلى تأكيد قيمة التسـامح الإيجابـي نحوهم، وليس مجرد التسـامح الحيادي وهـذا يعني الإقرار بالتعدديـة الحضارية، ويعني أيضًـا احتـرام حضارة الآخـر وثقافته مهمـا كان مسـتواه من الرقي المادي، لأن احترام الآخر والتعرف عليه من شأنه أن يؤدي إلى تفهم كل الظروف المحيطة به ومن شأنه كذلك أن يقضي على الكثير من الأحكام المسبقة والمفاهيم المغلوطة على كلا الجانبين.

وبنـاء على ذلك نسـتطيع أن نقـول: إن النظرة الاسـتعلائية أو عقدة التفوق والأفضلية في الجنس أو اللون أو المسـتوى الحضاري قد أصبحت نظرة تنتمي إلى الماضي، ولم تعد تتناسب بأي حال من الأحوال مع عالمنا المعاصر.

٢ - التخلي عن أطماع الهيمنة الاستعمارية:

والتخلـي عن الاسـتيلاء علـى مصـادر الثـروات البترولية لبلاد العالم الإسـلامي، وإملاء صيغ الإصلاح الجاهـزة على المجتمعات الإسـلامية، فإن كل أمة لها ظروفها الخاصة ولها خصوصياتها التي تعتـز بها، والتمايز الحضاري لم يكن في يـوم من الأيام يمثل عقبة فـي سـبيل التفاعـل والتواصل بيـن الحضارات، ومـن أجل ذلك لا

توجد حضارة إنسانية عريقة نمت وتطورت دون أن تتأثر بغيرها من الحضارات، فالتراث الإنساني أخذ وعطاء، ولا توجد أمة عريقة في التاريخ إلا وقد أعطت كما أخذت من هذا التراث ولم تشذ حضارة من الحضارات الكبيرة عن هذه القاعدة.

وإن محاولة حضارة من الحضارات الهيمنة على الحضارات الأخرى وفرض قيمها ونظمها على هذه الحضارات، وإلغاء خصوصياتها ومحو ذاتيتها أمر يعد ضد طبيعة الأشياء، ويعد جناية على الشعوب المنضوية تحت هذه الحضارات، لأنها ستجد نفسها بلا هوية وستجد نفسها مقطوعة الجذور، وفي الوقت نفسه لا تنتمي إلى حضارة الآخرين وفي ذلك قتل للشخصية الحضارية للأمة المعتدى على خصوصياتها لصالح الحضارة الساعية للهيمنة.

٣- اللجوء إلى الحوار بدلاً من العنف:

فالعنف لا يولد إلا العنف أما الحوار فهو اللغة الحضارية التي تليق بالبشر، وهو الأسلوب الأمثل لحل كل المشكلات، وتفادي الكثير من الشرور والدمار الذي يسببه اللجوء إلى العنف ولن يكون هناك حوار مثمر إلا إذا كان كل طرف لديه استعداد للاستماع إلى الطرف الآخر والتفكير فيما يطرحه من تصورات -كما سبق أن أشرنا في بداية هذا البحث- وكذلك الاستعداد لممارسة النقد الذاتي، والبعد عن التنديد بالآخر أو التقليل من شأنه، والسعي إلى التوصل من خلال الحوار إلى رؤى ومعايير مشتركة تفتح السبيل إلى تعاون مشترك، لا من أجل مصالحنا المشتركة فحسب، وإنما من أجل سلام هذا العالم واستقراره وبذلك يمكن التصدي لكل شكل من أشكال العنف والمواقف السلبية.

وإذا أردنا أن نكافح الإرهاب بطريقة فعالة فإن علينا أن نعالج هذا

الموضوع من جذوره وليس من السطح الخارجي، فالعلاج السطحي من شأنه أن يطيل دائرة العنف والعنف المضاد والأسلوب الأمثل لعلاج مشكلة الإرهاب هو البحث عن الأسباب الحقيقية المولدة للإرهاب ومعالجة هذه الأسباب بطريقة جذرية تسير جنبًا إلى جنب مع الحرب المعلنة على الإرهاب، كما ينبغي التفرقة الحاسمة بين الإرهاب الذي هو عدوان مرفوض وبين الكفاح المشروع للشعوب في سبيل حقوقها المشروعة فالخلط بين الأمرين خلط ظالم وغير مبرر لا من وجهة النظر الأخلاقية ولا من وجهة نظر القوانين الدولية.

٤- التركيز على القواسم المشتركة:

ينبغي أن يستقر في وعي الجانبين أن ما يجمع بين العالم الإسلامي والغرب من قواسم مشتركة أكثر مما يفرق بينهما وعلى سبيل المثال فإن أوروبا والبلاد الإسلامية في الشرق يربط بينهما جغرافيًا البحر الأبيض المتوسط فهما جيران لبعضهما البعض، ويشتركان لذلك في المصلحة المشتركة لاستقرار وضمان أمن بلادهما.

ولكن هناك سببًا آخر هامًا يجمع بينهما يتمثل في الخلفية الحضارية التي تتمثل فيما يربط بينهما من تاريخ طويل من التأثير الحضاري المتبادل وعلى الرغم من الأثر الحضاري الواضح للحضارة الإسلامية على الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى بفضل ترجمة العلوم الإسلامية إلى اللغة اللاتينية في تلك الفترة، فإن الغرب في العادة يتجاهل ذلك ويستنكف -وهو المتفوق حضاريًا- أن يعترف بهذه الحقيقة ويرد الفضل للحضارة الإسلامية التي شهدت في القرون الأخيرة فترة من التراجع الحضاري لم تتعاف منها حتى الآن.

وهناك بالإضافة إلى ذلك قاسم أساسي مشترك بين العالم الإسلامي والغرب فالمسيحية والإسلام واللذان يعدان القاعدة

الأساسية لحضارتيهما، يشتركان في نشأتهما في الشرق ويتطابقان في رسالتيهما تطابقًا جوهريًا، ويشكل الإيمان بالمسيح عليه السلام وبالإنجيل الذي أنزل عليه عنصرًا أساسيًا من عقيدة المسلمين.

وهذه القواسم المشتركة أو نقاط الالتقاء بين حضارة الغرب وحضارة الشرق الإسلامي تثبت بوضوح بطلان مقولة الأديب الإنجليزي المعروف كبلنج Kipling (ت ١٩٣٦م) التي يقول فيها: «الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا»، كما تثبت فساد تنبؤ هِنتنجْتون بحتمية الصدام بين حضارة الشرق وحضارة الغرب.

وقد وجد الشاعر الألماني جوته Goethe (ت ١٨٣٢م) كثيرًا من القواسم المشتركة التي تربط بين الشرق والغرب وعبر عن ذلك في (الديوان الشرقي الغربي) بقوله:

«لله المشرق ولله المغرب، وفي راحتيه الشمال والجنوب جميعًا» فالكل منه وإليه ويقول جوته أيضًا:

«من حماقة الإنسان في دنياه أن يتعصب كل منا لما يراه، وإذا كان الإسلام معناه التسليم لله فإننا جميعًا نحيا ونموت مسلمين».

٥- عدم إغفال الجوانب السياسية والاقتصادية والعسكرية:

لا ينبغي أن ينسينا الحماس والأمل في عودة الثقة بين الجانبين إلي مجاريها الطبيعية بعض العناصر الأخرى التي لها أهميتها البالغة في هذا الصدد فالأمر لايتعلق فقط بالجوانب الدينية والحضارية، بل يتعلق أيضًا -بالإضافة إلى ذلك - بجوانب سياسية واقتصادية وعسكرية ومن الضروري مناقشة كل هذه الجوانب في إطار حوار يتم في صراحة ووضوح يراعي مصالح كل الأطراف، بعيدًا عن كلمات المجاملة الفارغة والعبارات الدبلوماسية المنمقة التي لا تجدي شيئًا في مثل هذه الأحوال.

خاتمة الفصل الثاني

وفي ختـام حديثنا نود التأكيد على أن اسـتعادة الثقة بين العالم الإسـلامي والغـرب أمـر لا يأتى تلقائيًـا، أو بقرارات تصـدر هنا أو هنـاك، أو مـن خلال مؤتمرات تصـدر عنها توصيـات بذلك فهناك بالإضافة إلى كل ما عرضناه عوامل نفسـية لها دورها الذي لا يجوز تجاهله فالمواطنون في الغرب يشـعرون -سـواء كان هذا الشـعور وهما أو حقيقة- بأنهم مهددون من جانب المسـلمين، على الرغم من التفوق الغربي في جميع المجالات تقريبًا والمسـلمون بدورهم يشعرون أيضًا بالخوف من الاغتراب الثقافي وبجروح نفسية عميقة ترجـع إلـى عصـور من تجـارب القهـر والإذلال من جانـب البلدان الغربية، وبخاصة فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية.

ومعالجة ذلك كله في حاجة إلى تفهم كل جانب لمشاعر الطرف الآخر، والتحلي بالصبر والهدوء، وعقلنة هذه المشاعر، والتمسك بالموضوعية في الحوار.

ونعتقـد أن من الأمور التي يمكن أن تسـاعد على اسـتعادة الثقة بيـن الجانبيـن أن تقوم أوروبا -التي لديها خبرة طويلة بمشـكلات العالم الإسـلامي- بمحاولة اسـتعادة شـكل ما من أشـكال التوازن الدولـي فمنذ انهيار الاتحاد السـوفيتي -الذي كان يشـكل عنصرًا لا يمكن تجاهله في التوازن الدولي- أصبح هناك فراغ في السياسـة الدولية ولم يعد هناك وجود لما يسمى بالتوازن الدولي وقد انعكس ذلك بالسلب على المنظمات الدولية.

ولا شك في أن انفراد قوة ما في العالم باتخاذ قرارات أحادية الجانب تتجاوز المنظمات الدولية وتنتهك القانون الدولي لن يكون في مصلحة السلام العالمي والحرب في العراق أقرب مثال على ذلك والعالم اليوم في أشد الحاجة إلى الإصغاء لصوت العقل والمنطق للحد من اندفاع القوة الأعظم إلى اتخاذ مواقف وقرارات بعيدًا عن المنظمات الدولية يمكن أن تؤدي إلى كارثة عالمية لا يعلم مداها إلا الله.

الفصل الثالث

القرن الجديد
وخيار الحوار الحضاري[(١٠)]

لقد أثار صامويل هنتنجتون بمقاله عن صِدام الحضارات عام ١٩٩٣م ضجة كبرى في الغرب وفي الشرق على السواء، كما كان لبحث فوكوياما حول نهاية التاريخ ردود فعل متباينة. ومن الطبيعي أن ينشغل كثير من المفكرين والباحثين في عالمنا الإسلامي بهذه القضية، وبخاصة أن هنتنجتون قد تحدث عن الإسلام، وتنبأ بأن بؤرة النزاع في المستقبل ستكون بين حضارة الغرب من جانب والحضارة الإسلامية والكنفوشية من جانب آخر. وقد قام هنتنجتون بتفصيل ما أجمله في مقاله من أفكار في كتاب كبير صدر عام ١٩٩٦م.

وما ذكره (هنتنجتون) ليس أمرًا جديدًا كل الجدة، ولكن الظروف التي طرح فيها أفكاره وتوقيت هذا الطرح هو الذي هيأ المناخ لنشرها ومناقشتها على نطاق واسع. فقد جاءت هذه الأفكار بعد نهاية الحرب الباردة وفي أعقاب ما تنبأ به الرئيس الأمريكي الأسبق نيكسون من صراع حتمي بين الغرب والعالم الإسلامي، وما صرح به الأمين العام لحلف الأطلنطي حينذاك من أن الإسلام هو الخطر القادم أو العدو البديل بعد سقوط الاتحاد السوفييتي، على الرغم من أن الغرب كان يتعاون قبل هذا السقوط مع الإسلام لضرب الشيوعية ولكن يبدو أن الوضع قد تغير في نظره بعد انهيار الاتحاد السوفييتي وقد يحمل ذلك على الاعتقاد بأن مقال هنتنجتون كان

---

(١٠) نشر هذا المقال في صحيفة الأهرام في ١٩٩٩/٨/٢٣م.

تنظيـرًا لاتجاه أمني جديد في العالـم الغربي أكثر من كونه بحثًا في العلاقات بين الحضارات.

ولعـل ذلك كلـه يعطي صورة قاتمـة لعلاقة الغرب المسـتقبلية بالإسلام أو علاقة الحضارة الإسلامية بالحضارة الغربية، وقد يعطي أيضًـا دافعًـا جديدًا ومؤشـرًا واضحًـا لبعض التيـارات - في عالمنا الإسـلامي - التي تنطلق فـي توجهاتها من فرضيـة أن هناك مؤامرة تدبـر في الخفاء أو في العلن لضرب الإسـلام والمسـلمين، وهناك بعض الشواهد التي قد تعزز ما يذهبون إليه.

وفـي هذا المقـام نود أن نتنـاول موضوع صـراع الحضارات من بعض الجوانب التي قد لا تكون قد حظيت بما تسـتحقه من اهتمام وعناية.

وفي البداية نشير إلى أنه إذا كان العالم قد شهد على مدى تاريخ البشـرية صراعـات داميـة، فإن النصـف الأول من القرن العشـرين قد شـهد نشـوب حربين عالميتين لعلهما كانتا أكثر دموية من أي حروب أخرى شـهدها العالم؛ فقد التهمت هاتان الحربان أكثر من خمسين مليونًا من البشر، بما قد يقترب من أعداد من راحوا ضحية حروب العالم السابقة في التاريخ المعروف.

ولكـن ممـا يثيـر الانتباه فـي هـذا الصـدد أن هاتيـن الحربين العالميتيـن لم تكونـا بين حضارتين مختلفتيـن، وإنما كانتا داخل حضـارة واحدة هي الحضـارة الغربية، كما أن الحـرب الباردة أيضًا كانت داخل حضارة واحدة ذات أيديولوجيتين مختلفتين.

وهـذا يعني أن الصراع بين بني الإنسـان لا يكون بالضرورة بين حضـارات مختلفة، فالحضـارة الحقيقية تعني فـي جوهرها التقدم المادي والروحي للأفراد والجماعات، أي إنها ترتقي بالإنسان ماديًا

وروحيًـا، وتهـذب من أخلاقه، وتحـد من نزعاتـه العدوانية، وإنما يكون الصراع بين البشـر من أجل مصالـح ومطامع وأيديولوجيات متباينة وأهداف دينية أو سياسـية فهو إذن صراع قوي تهدف به إلى فرض سـيطرتها وتسـلطها على قوى أخرى، أما الحضـارات فإنها تدفع بالأحرى إلى الحوار لا إلى الصدام.

وقد شهدت البشرية هذا وذاك، فالمسلمون مثلا قد اضطروا في عصور الإسلام الأولى إلى الدخول في صدام مسلح مع الروم - الذين كانـت تمثلهم في ذلك الوقـت الدولة الرومانية الشـرقية - ولكن ذلك لم يمنعهم على المسـتوى الحضـاري من إجراء حوار حضاري مـع الروم، وإن كان حـوارًا صامتًا - إذا جاز هذا التعبير - وقد تمثل ذلك في ترجمة العلوم المختلفة لليونان إلى العربية، وتم ذلك أيضًا بالنسبة للفرس والهند.. إلخ.

وفي المقابل خاضت أوروبا بجحافلها القادمة من مختلف البلاد الأوروبيـة حربًا ضد المسـلمين - سـميت بالحـروب الصليبية - استمرت ما يقرب من قرنين من الزمان، ولكن ذلك لم يمنع أوروبا من القيام بحوار - على المسـتوى الحضاري - مع المسلمين تمثل في حركة ترجمة نشطة لعلوم المسلمين إلى اللغة اللاتينية.

وقـد كان مـن الطريف في هذا الصـدد أن أوروبـا أول ما عرفت الفلسـفة اليونانية - وهي فلسفة أوروبية - عرفتها عن طريق النقل من العربية، ولم تبدأ في نقلها من اليونانية مباشـرة إلا بعد سـقوط القسـطنطينية في يد الأتراك العثمانيين، وهجرة العلماء اليونانيين على أثر ذلك إلى إيطاليا.

وفـي العصـر الحاضر بـدأ العالـم الإسـلامي يترجم مـا أنتجته الحضـارة الغربية الحديثة من منجزات علمية، ويرسـل البعوث إلى

جامعـات الغرب للاغتراف من علومها وفنونهـا. وقد فعلت أوروبا الشـيء نفسـه في الماضي بإرسـال بعثات إلى الأندلس حينما كان للمسلمين في الأندلس حضارة مزدهرة.

ومـن ذلك يتضـح أن الصراع الحضاري لم يكن هـو القاعدة في علاقة أوروبا بالإسلام، بل كان التفاعل الثقافي يفرض نفسه دائمًا، ويترك آثاره البعيدة والفعالة بعد زوال أسباب الصراعات الأخرى.

ونحن نزعم أن القرن القادم لن يشـهد صدامًـا بين الحضارات، وإن كانـت هنـاك محاولات من جانب العولمـة للترويج لنظم وقيم معينة تثير استفزاز الآخرين.

والـذى يدعونا إلى القول بأن القرن القـادم لن يكون قرن صراع حضاري وإنما قرن حوار حضاري هو ما يلي:

أولًا: صراعـات الماضي تختلف عن صراعـات الحاضر اختلافًا أساسـيًا، فنحن فـي عصر ثـورة المعلومـات والاتصـالات والثورة التكنولوجيـة قـد أصبحنا نعيش في عالم يمثـل قرية كونية كبيرة. والأخطـار التي تهدد عالمنـا المعاصر قد أصبحت أخطـارًا عالمية تهدد الجميع، وتتطلب جهـودًا دولية لمواجهتها مثل قضايا البيئة والمخدرات والإرهـاب الدولي والجريمة المنظمة وأسـلحة الدمار الشـامل وأمـراض العصر، وعلى رأسـها أمـراض نقـص المناعة أو الإيدز، وغيرهـا من القضايا التي تتطلب تكاتـف الجهود الدولية. ولعل ذلك هو الذي شجع الأمم المتحدة على الإعداد لتنظيم منتدى للحوار بين الحضارات عُقد عام ٢٠٠١م دعمًا للتفاهم بين الثقافات والحضارات المختلفة.

ثانيًا: إذا كانت الأصوات التي تروج لصدام الحضارات قد وجدت أصداء واسعة في الشرق وفي الغرب فإن هناك جهودًا وأصواتًا مضادة

فـي الغرب ترفض بشـدة مقولة هنتنجتون حول صـدام الحضارات، وبصفة خاصة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية.

ومن الأمثلة على ذلك ما شـهده العقد الأخير من القرن العشرين مـن رفض واضح في بعض الدوائر الغربية لنظرية صدام الحضارات. - إذا جاز أن تسمى هذه الدعوة بالنظرية -.

ومن بين تلك الأصوات العاقلة في الغرب (الأمير تشـارلز) ولي عهد بريطانيا الذي ألقى محاضرة هامة في ٢٧ أكتوبر ١٩٩٢م[١١] في مسرح شيلدونيان بأكسفورد بمناسبة زيارته إلى مركز أكسفورد للدراسـات الإسـلامية وأكد فيهـا أن «الذي يربـط العالمين الغربي والإسلامي أقوى بكثير مما يقسمهما.. فالمسلمون والمسيحيون واليهود جميعهم (أصحاب كتاب). والإسلام والمسيحية يشتركان في النظـرة الوحدانية: الإيمان بإله واحد، وبأن الحياة الدنيا فانية، وبالمسئولية عن أفعالنا، والإيمان بالآخرة، إننا نشترك في كثير من القيم».

وأشـار إلى أن حكم الغرب على الإسـلام قـد عانى من التحريف الجسيم نتيجة الاعتبار بأن التطرف هو القاعدة، وقال:

«إن التطرف ليس حكرًا على الإسـلام، بل ينسحب على ديانات أخرى بما فيها الديانة المسـيحية. والغالبية العظمى من المسلمين يتسمون بالاعتدال، ودينهم هو دين الاعتدال».

وأشـار كذلـك إلـى أن هنـاك الكثير ممـا يمكـن أن نتعلمه من الإسلام، وأن العالمين الإسلامي والغربي يمكن أن يتعلما كثيرًا من بعضهما البعض.

---

(١١) نشر مركز أكسـفورد للدراسات الإسـلامية هذه المحاضرة، تحت عنوان (الإسلام والغرب) عام ١٩٩٣م.

ورفض مقولة صدام الحضارات قائلًا: «أنا لا أوافق على مقولة إنهما - العالم الإسلامي والغربي - يتجهان نحو صدام في عهد جديد من الخصومة والعداء، بل إنني على قناعة تامة بأن لدى عالمينا الكثير لكي يقدماه إلى بعضهما البعض».

كما أشار أيضًا إلى أن الكثير من المزايا التي تفخر بها أوروبا العصرية قد جاءت أصلًا من إسبانيا أثناء الحكم الإسلامي. وخلص إلى القول: «إن الإسلام جزء من ماضينا وحاضرنا في جميع مجالات البحث الإنساني. وقد ساهم في إنشاء أوروبا المعاصرة. إنه جزء من تراثنا وليس شيئًا منفصلًا عنه».

وفي نفس الإطار نجد أن وزير الخارجية البريطاني (روبين كوك) يشير في محاضرته في المركز الإسماعيلي في لندن في ٨ أكتوبر ١٩٩٨م[١٢] إلى أن جذور الثقافة الغربية ليست يونانية أو رومانية الأصل فحسب، بل هي إسلامية أيضًا. ويبين أن التحديات التي نواجهها تحديات عالمية. ويرفض مقولة صراع الحضارات، وأن الإسلام هو العدو الجديد للغرب ويقول: «إن البعض يقول: إن الغرب بحاجة إلى عدو، وبما أن الحرب الباردة قد ولت إلى غير رجعة فإن الإسلام سيأخذ مكان الاتحاد السوفييتي القديم كعدو. ويقولون: إن صراع الحضارات قادم وأن لا مفر منه. وأنا أقول: إنهم مخطئون، بل ومخطئون خطأً فادحًا. فنحن لسنا بحاجة إلى الإسلام كعدو، بل نحن بحاجة إلى الإسلام كصديق».

ويشير إلى أن «الغرب مدين للإسلام بالشيء الكثير، فالإسلام قد وضع الأسس الفكرية لمجالات عديدة مهمة وكبيرة في الحضارة

---

(١٢) تلقيت من السفير البريطاني نص هذه المحاضرة ونشرناها في مجلة منبر الإسلام بالعدد الصادر في شعبان ١٤١٩هـ الموافق ديسمبر ١٩٩٨م ص٥٥ - ٥٨.

الغربيــة. إن ثقافتينا قد تشــابكتا مع بعضهما البعــض عبر التاريخ والأجيال، وهي تتشابك أيضًا في وقتنا الحاضر».

ويبرز (كوك) أهمية الحوار بين الجانبين ويقول: «اليوم أريد أن أقترح بأن نبدأ حوارًا جديدًا جديًا بين أوروبا والعالم الإسلامي. فقد حان الوقت لكي يبدأ الاتحاد الأوروبي ومنظمة المؤتمر الإســلامي بالتكلم مع بعضهما البعض على أعلى مستوى ممكن».

فإذا اتجهنا شــطر أكبر دولة في أوروبا، ونعني بها ألمانيا، فإننا نجــد اتجاهًا مماثلًا رافضًا تمامًا لفكــرة صراع الحضارات، ومتبنيًا أســلوب الحــوار الحضــاري. وقد ذهــب الرئيس الألمانــي (رومان هيرتســوج) خطوة أبعد في هذا المجال بالدعوة إلى عقد مؤتمر في العاصمة الألمانية برلين للحوار بين الحضارتين الإسلامية والغربية.

وقد وجه الدعوة إلى رؤساء خمس من الدول الإسلامية هي مصر والمغرب والأردن وإندونيســيا وماليزيا، ورؤســاء خمس من الدول الأوروبية هي إيطاليا وإســبانيا والنمسا والنرويج وفنلندا، بالإضافة إلــى ألمانيا الدولة المضيفة. وتم اللقاء في ٢٣ أبريل ١٩٩٩م على مستوى المراكز البحثية المتخصصة.

ومثّــل مصــر فيــه الدكتــور أحمد كمــال أبــو المجد والســفير محمود فرغل مدير المعهد الدبلوماســي بالقاهرة. وقد اشــترك في المؤتمر أيضًا ممثلون لدول أخرى مثل إنجلترا وفرنســا وسويســرا والسويد ولبنان. وصدر عن المؤتمر (بيان برلين) الذي يمثل خطة للعمل المســتقبلي. وقــد تضمن البيان العديد مــن التوصيات التي تدعم الحوار الحضاري بين الشــرق والغرب، وتستشــرف مستقبل العلاقات بين المجتمعات الإسلامية والغربية.

وبالإضافــة إلى ذلك صدر في شــهر مايو ١٩٩٩م كتاب للرئيس

الألمانـي بعنوان (الحيلولـة دون صدام الحضارات - اسـتراتيجية السـلام للقرن الحادي والعشـرين). وقد تضمن هـذا الكتاب آراء الرئيـس الألمانـي التـي أعلنها حول هـذا الموضوع فـي الفترة من ١٩٩٥م حتـى ١٩٩٩م، كمـا تضمـن أيضًـا تعقيبـات لأربعـة من المفكرين المعروفين.

ويؤكد الرئيس الألماني رفضه المطلق للزعم بأن الشرق والغرب يسـتعدان لمواجهة مزعومة بين الإسـلام والمسـيحية. ويحذر من خطورة التركيز على القواسم المشتركة بين الحضارات.

والأمـر الجديـر بالذكر في هذا المقـام أن صامويل هنتنجتون - الـذي كان مُقررًا أن يكون أحد المعقبين على الأفكار المطروحة في الكتاب - قد أبدى دعمه لاستراتيجية الرئيس الألماني المتمثلة في الحيلولة دون الصدام بين الحضارات عن طريق الاهتمام بالقواسـم المشتركة بين الحضارات.

ويشـير الرئيـس الألمانـي إلـى ضـرورة بناء جسـور الثقـة بين الجانبيـن لمواجهـة تحديـات المسـتقبل التـي تعـد تحديـات لنا جميعًـا، كما يدعو إلى ضـرورة تعرف الشـعوب والحضارات على بعضها البعض على نحو أفضل للوصول إلى فهم مشـترك، واحترام متبادل وثقة متبادلة أيضًا. ويرى أن الحوار بين الحضارات والأديان يعـد أهم الواجبات الملقاة على عصرنـا، وبصفة خاصة الحوار بين الإسلام والمسيحية.

ومـن خلال هذه التوجيهـات الصادرة في أوروبا من شـخصيات لهـا وزنها يتضح لنا أن هنـاك تيارًا أوروبيًا قويًـا رافضًا فكرة صدام الحضـارات، وهو تيار أقوى كثيـرًا من تيار صامويل هنتنجتون ومن يشـايعه. ولكن الشيء المؤسـف أنه قد تم تسليط الضوء على نحو

مريب على أفكار هنتنجتون السلبية، وتم تضخيمها إعلاميًا، وفي الوقت نفسه غابت عن الساحة الإعلامية تلك الأفكار الإيجابية والأصوات العاقلة التي ترفض صدام الحضارات وتتبنى حوار الحضارات، الأمر الذي أصاب الكثيرين في عالمنا الإسلامي بشيء من الإحباط، وجعلهم ينظرون بتشاؤم إلى مستقبل العلاقات بين الشرق والغرب، أو بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية.

وأعتقد أنه قد آن الأوان لأن نعطي لهذه الأصوات الأوروبية العاقلة فرصة لتأخذ مكانها في خضم المناقشات الجارية حول صراع الحضارات في عالمنا الإسلامي، وفي مصر بصفة خاصة، وأن نتجاوب معها بهدف تعبيد الطريق أمام حوار حضاري بنّاء من أجل خير وسلام أبناء الحضارتين الإسلامية والغربية، الأمر الذي من شأنه أن يسهم بدوره في أمن واستقرار عالمنا المعاصر.

وسوف تثبت الأيام القادمة أي الفريقين – من أنصار الصراع أو الحوار – أرسخ جذورًا وأبقى تأثيرًا وأقوم سبيلًا.

الفصل الرابع

الإسلام والاستنساخ البشري(١٣)

قضية الاستنساخ البشري ليست مجرد قضية علمية تخص العلماء أصحاب الاختصاص وحدهم، وإنما هي قضية إنسانية عامة تخص الإنسان أينما كان وأنى كان. وهي أيضًا قضية متشعبة الجوانب، تتطلب بحثًا جديًا من أطراف عديدة وتخصصات مختلفة في الدين والأخلاق والقانون والاجتماع وعلم النفس وغيرها، وذلك لما للاستنساخ البشري من آثار بعيدة المدى على حياة النوع البشري كله في مستقبل الأيام.

وحينما تم الإعلان عن استنساخ النعجة (دوللي) دعوت إلى ندوة في المجلس الأعلى للشئون الإسلامية لمناقشة موضوع الاستنساخ، اشترك فيها نخبة من العلماء المتخصصين في هذا المجال، وقد قصدت بذلك أن أضع حصيلة ما دار في هذه الندوة أمام علماء الشريعة ليسترشدوا به عند حديثهم في هذا الموضوع؛ حتى يكون رأيهم في هذا الصدد مبنيًا على أساس وفهم وإدراك لأبعاد القضية(١٤).

وقبل أن نعرض ما يمكن أن يكون تصورًا إسلاميًا في هذا الصدد نود أولًا أن نؤكد بعض الحقائق الإسلامية التي تعد أساسًا للحديث

---

(١٣) كتبنا هذا الموضوع في الأصل بمثابة تقديم لكتاب (من يخاف استنساخ الإنسان؟) من تأليف جورجي أ. بنس وترجمة د. أحمد مستجير.

(١٤) نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية في يوليو ١٩٩٨م، ما دار في الندوة المذكورة تحت عنوان (الاستنساخ بين العلم والدين) في سلسلة (دراسات إسلامية)، وفي أغسطس ١٩٩٨م تم نشر حصيلة ما دار في ندوة أخرى في السلسلة ذاتها تحت عنوان (الاستنساخ في رؤية الفقهاء).

في قضية الاستنساخ البشري. ومن أبرز هذه الحقائق ما يلي:

١- يؤكد الإسلام على كرامة الإنسان بوصفه خليفة الله في الأرض. وهذه الكرامة تشمل كل إنسان بصرف النظر عن جنسه أو لونه أو معتقده:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾

(الإسراء: ٧٠)

٢- يؤكد الإسلام على دور الأسرة، ويحث على التكاثر البشري عن طريق الزواج الشرعي، كما ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام: (تناكحوا تناسلوا) [فيض القدير]، والنكاح يعني الزواج الشرعي.

٣- حفظ النسل يعد أحد المقاصد الأساسية للشريعة الإسلامية. ويعني ذلك حفظ النوع الإنساني، كما يعني أيضًا حفظ الأنساب وحمايتها من الاختلاط، وما يترتب على ذلك من صلة الأرحام، وتحريم زواج المحارم، وبتطبيق نظام المواريث على النحو الوارد تفصيلا في القرآن الكريم.

٤- يهتم الإسلام اهتمامًا بالغًا بالإحسان إلى الوالدين، ويقرن القرآن الإحسان إليهما بعبادة الله.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾

(الإسراء: ٢٣)

وفي ذلك تأكيد لما يربط بين الوالدين وذريتهما من عواطف ومشاعر لها أهميتها البالغة في تنمية الحياة الإنسانية.

٥- الدين قد جاء لمصلحة الإنسان، ومن أجل خيره وسعادته في دنياه وأخراه. وكل ما يجلب مصلحة حقيقية للإنسان فهو (شرع الله).

٦- العلم فريضة إسلامية لا تقل أهمية عن فرائض الصوم والصلاة

والزكاة، والكون كله مجال للبحث العلمي بلا حدود ولا قيود:
﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾

(الجاثية: ١٣)

وفي ضوء هذه المبادئ يحرص الإسلام كل الحرص على الحث على تكوين الأسرة الصالحة بوصفها الخلية الأولى لتكوين المجتمع الصالح، كما يحرص على توفير كل أسباب النجاح والاستمرار للعلاقة الزوجية تأكيدًا لما يربط بين الزوجين من مودة ورحمة:

﴿وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً﴾

(الروم: ٢١)

ومن أجل ذلك كان حرص الإسلام واضحًا على ضرورة العمل على تحسين النسل عن طريق الاختيار السليم لشريكي الحياة، واتخاذ الوسائل الكفيلة المؤدية إلى هذا الغرض، ومن هنا حذر من زواج الأقارب لما لذلك من تأثير سلبي على النسل، وهذا أمر أكّده العلم أيضًا. كما حرص على سلامة الزوجين من العيوب أو الأمراض التي يخشى أن تنتقل إلى الأطفال. ولا يمنع الإسلام اتخاذ الوسائل المحققة لذلك بالفحص الطبي للراغبين في الزواج.

والإسلام لا يعتمد للإنجاب إلا طريقًا واحدًا فقط هو الزواج الشرعي، الذي هو الطريق الطبيعي للتكاثر البشري، ولا يبيح الإسلامُ الخروجَ عن هذه القاعدة.

وإذا كان الأمرُ كذلك، فهل يعني هذا أن الاستنساخ البشري مرفوض تمامًا من وجهة النظر الإسلامية؟

إن من المعروف أن الاستنساخ البشري قد يكون استنساخًا جزئيًا أو استنساخًا لكائن بشري كامل. فإذا كان استنساخًا جزئيًا

لعضو من أعضاء الإنسان مثل القلب أو الكبد أو الكلى... إلخ مما يحقــق مصلحة حقيقية للإنســان فإن هذا أمر لا بــأس فيه ولا حجْر عليه، بل إنه ينســجم تمامًا مع ما ســبق أن أشــرنا إليه من حقيقة أن الدين قد جاء لمصلحة الإنسان.

أما الاستنساخ لكائن بشري كامل فإن ذلك يؤدي إلى مشكلات شــائكة ومعقدة من شأنها تهديد نظام الأسرة كله في الإسلام، وهو نظــام يقوم على الزواج الذي هو علاقة حميمة بين الزوج والزوجة. ويعد الأطفال في الأسرة ثمرة طبيعية لهذه العلاقة الحميمة المشبعة بعواطــف الأبوة والأمومة والبنوة. ومن شــأن الاستنســاخ البشــري أن يــؤدي إلى اختلال هذا النظــام، وفقدان هــذه العواطف، وضياع الانتمــاء الطبيعي داخل الأســرة، هذا الانتماء الــذي له دوره الكبير في تأمين النمو السَّوي لشخصية الطفل.

وبالإضافــة إلــى ذلك يحرم الإســلام - كما هو معــروف - زواج المحــارم المنصوص عليهــن في القرآن الكريم، بــل يجعل الرضاع أيضًا سببًا مُحَرِّمًا للزواج ممن عقد الرضاع بينهم علاقة تعادل علاقة النسب. وفي ذلك تنص القاعدة الشرعية على أنه «يحرم من الرضاع ما يحرم من النســب» [البخاري] ويتصل بذلك كله التزامات مالية شرعية في الإنفاق، وفي تطبيق نظام المواريث الإسلامية. وكل هذه أمور لن يكون لها أدنى اعتبار في الاستنساخ البشري.

ولا يســتثنى مــن ذلــك أيضًا أقــرب صور الاستنســاخ البشــري للمعقوليــة، والتي تتمثل فيما إذا كان الزوجان لا ينجبان، وتم أخذ المــادة الوراثيــة أو الخلية من الزوج، وكانــت المرأة الحاضنة لهذه المادة الوراثية هي الزوجة، فإن الجنين المستنسخ سيكون من جهة ابنًــا للزوجين، ومن جهة أخرى نســيخًا للأب بمثابة التوأم، أما الأم

فإن دورها سيكون مجرد حاضنة للمادة الوراثية.

ويتضح لنا من هذه الصورة من صور الاستنساخ البشري وغيرها من صور أخرى أكثر تعقيدًا مدى ما سوف يسببه الاستنساخ البشري من خلل في العلاقات الاجتماعية والعاطفية، بل قد يصل الأمر إلى إلغاء عاطفة الأبوة أو الأمومة، ومن شأن ذلك كله أن ينعكس بالسلب على الطفل المستنسخ. وتفاديًا لذلك يغلق الإسلام هذا الباب من أجل مصلحة المجتمع ككل، ومن أجل سلامة العلاقات بين الناس فيه، وسلامة الأنساب، حتى وإن كان الاستنساخ البشري سوف يجلب مصلحة فردية لبعض الناس الذين لا يستطيعون الإنجاب. فالقاعدة الشرعية في مثل هذه الأحوال هي: «درء المفاسد مقدم على جلب المصالح».

وفضلًا عن ذلك فإن كرامة الفرد التي يحرص عليها الإسلام سيتم إهدارها في عملية الاستنساخ البشري.. فدور كل من الرجل والمرأة في عملية الإنجاب الطبيعي دور إيجابي فعال كما هو معروف، والجنين يرث صفاتهما معًا، وكل منهما يشعر بأنه يقوم برسالة في هذه الحياة، إذ يشارك في إثراء الحياة عن طريق الإنجاب.

أما إذا جاء الجنين عن طريق الاستنساخ فإن معنى ذلك تجريد كل من الرجل والمرأة من هذا الدور الإيجابي، إذ إن هذا الدور سينتقل إلى إرادة خارجية وعملية مختبرية. وهذا في حد ذاته إهانة لكل منهما. فالمرأة ستشعر بأنها لم تعد أكثر من مجرد حاضنة للخلية، والرجل حين تؤخذ منه الخلية سيشعر بأنه أصبح مجرد مستودع للخلايا، تؤخذ منه الخلية الحية لتوضع في رحم امرأة قد تكون زوجته وقد لا تكون، بل قد تكون من محارمه المحرم زواجه منها، بل قد تؤخذ الخلية من أنثى والبويضة من أنثى أخرى ثم تزرع

بعـد التلقيـح في رحم أنثى ثالثة. فأي مصلحة حقيقية للإنسـان في ذلـك؟! وإلى من ينتمي الجنين؟ أليـس في ذلك جناية عليه وإهدار لكرامته؟! ألا يعني ذلك أن الإنسان لم يعد ينظر إليه في الاستنساخ البشـري علـى أنـه غاية في ذاتـه، بل يصبـح مجرد وسـيلة يمكن التلاعب فيها وبها؟!

إن التنوع سـنة الحياة، ومن شـأنه إثراء الحيـاة، وهذا ما عرفته البشـرية منـذ نشـأتها. والاستنسـاخ من شـأنه أن يأتي لنا بنسـخ مكررة. وقد أراد الخالق للناس أن يكونوا مختلفين، وأن يكون لكل فرد شخصيته المستقلة:

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾

(هود: ١١٨)

ولتأكيـد هـذا الاختلاف بين البشـر أعطانا الله رمـزًا يؤكد ذلك يتمثـل في عدم اتفاق بصمة إبهـام فردين في هذا الوجود. وذلك له دلالته البالغة في التأكيد على التنوع والاختلاف. وهذا أمر لا يتحقق عن طريق الاستنساخ.

والسؤال إذن هو: هل معنى ذلك أن الإسلام يقف عقبة في طريق البحث العلمي وتطوره؟

والإجابـة عـن ذلك هـي بالقطع لا. فالإسـلام يفتـح الباب على مصراعيـه أمام العلم بلا حدود ولا قيود، والإنسـان مطلوب منه أن يبحث وينقب في كل مكان في هذا الكون وفي أسرار خلق الإنسان نفسه، لأن ذلك من شأنه أن يؤدي إلى تعميق الإيمان

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ﴾

(فصلت: ٥٣)

ولذلك جعل القرآنُ العلماءَ أخشى الناس لله:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾

(فاطر: ٢٨)

لأنهم الذين يدركون أسرار الخلق وجمال الكون وجلال الخالق.

ولكن القضية التي يدور حولها الخلاف تتمثل في أسلوب استخدام الإنسان للعلم واكتشافاته. فالطاقة الذرية مثلًا اكتشاف خطير ولكن الدين لا يرفضه، وإنما يرفض استخدامه في تدمير البشرية، ويشجع على استخدامه في كل النواحي السلمية التي تتفق والمصالح الحقيقية للإنسان. والأمر كذلك بالنسبة لقضية الاستنساخ، إذ لا مانع من الاستنساخ في مجال الحيوان والنبات، بل وفي المجال البشري في استنساخ الأعضاء التي قد يحتاجها الإنسان. أما الاستنساخ الكامل للكائن البشري فليس فيه (مصلحة حقيقية مشروعة) للإنسان، بل يترتب عليه آثار ضارة، بل ومدمرة، من النواحي الدينية والأخلاقية والنفسية والاجتماعية والقانونية.

ومن أجل ذلك فإن الحكمة تحتم علينا أن نترك الطبيعة الإنسانية تسير سيرها الطبيعي في التكاثر البشري طبقًا لقوانين الخالق الذي خلق الحياة والأحياء، والذي يعلم من خلق، ويعلم ما ينفعه وما يضره:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾

(الملك: ١٤)

الفصل الخامس
الإسلام وحوار الأديان

لقـد أصبحت قضية الحوار في عالمنا المعاصر قضية ملحة على جميع المسـتويات فنحن نعيش في عصر تشـابكت فيه المصالح، وتعقدت فيه المشاكل على نحو لم يسبق له مثيل.

وقد أصبح البحث عن حلول لهذه المشاكل عن طريق الحوار أمرًا ضروريًا وقد يكون الحوار محليًا أو إقليميًا أو عالميًا حسـب طبيعة المشـاكل المثـارة، وعلى جميـع الأصعدة السياسـية والاقتصادية والاجتماعية والدينية وغيرها من مشـكلات، ومن هنا يمكن القول بـأن الحـوار قـد أصبح ضـرورة من ضـرورات العصـر للتغلب على المشكلات الواقعية في عالمنا، وتعد القضايا الدينية جزءًا لا يتجزأ من مشـكلات عالمنا الواقعية، بل تُعد فـي كثير من الأحيان بمثابة الخلفية لغيرها من المشـكلات لما للدين من تأثير عميق في نفوس النـاس هكذا كان الحال في السـابق، و لا يـزال الحال كذلك حتى اليوم، والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة.

ويُعـد الحوار الديني جـزءًا لا يتجزأ من الحـوار بين الحضارات فالحضـارات فـي كل مـكان في العالم قـد قامت أساسًـا - كما هو معـروف - على قاعدة مـن الدين ويُعد الدين حتـى اليوم - في نظر كُتـاب معاصرين مرموقين فـي الغرب - أحد المكونات الرئيسـية لأي حضارة، بالإضافة إلى اللغة والتاريخ والثقافة.

ومـن هنا يصف الغـرب حضارته بأنهـا حضارة مسـيحية، كما يصف المسلمون حضارتهم بأنها حضارة إسلامية.

مـن ذلك يتضـح لنا أن الحـوار الديني لا يمكن عزلـه عن ألوان الحوارات الأخرى، لأنه يتشابك معها بشكل أو بآخر تشابكًا ظاهرًا

أو خفيًا أردنا أم لم نرد، وقد أكد هذه الحقيقة أحد علماء الأديان المعاصرين المستنيرين في ألمانيا وهو الأستاذ هانز كونج بقوله: «إن تحقيق السلام في العالم يتوقف على تحقيق السلام بين الأديان ولن يتحقق السلام بين الأديان إلا بإجراء حوار بين هذه الأديان».

ومن شروط نجاح أي حوار على أي مستوى أن يكون كل من طرفي الحوار ندًا للآخر، وهذا يعني ضرورة تحقيق المساواة التامة بينهما في كل ما يتعلق بالحوار المراد إجراؤه بين الطرفين.

ويقتضي الحوار أيضًا أن تكون هناك قضية محددة يتحاور الجانبان بشأنها، ولا بد في هذه الحالة أن تحدد بدقة عناصر هذه القضية حتى لا يدور الحوار في حلقة مفرغة مثل حوار (الطرشان) كل يتحدث بلغة مختلفة، وبمفاهيم مختلفة، لا تربط بينها أرضية مشتركة.

ويتطلب الأمر كذلك تحديدًا واضحًا لأهداف الحوار، حتى تكون هذه الأهداف دليل المتحاورين لا يحيد عنها طرف من الأطراف ولا يجوز التقليل من أهمية هذا التحديد الواضح للأهداف، إذ بدونه سنجد كل طرف يغنّي على ليلاه، الأمر الذي يبعد المتحاورين عن إمكان التوصل إلى أي شيء مفيد.

ويضاف إلى ذلك أمر هام يتمثل في ضرورة توفر مناخ مناسب للحوار ينأى عن الأحكام المسبقة والمفاهيم المغلوطة، ويتحرر من العقد النفسية سواء كان ذلك يتمثل في عقدة التفوق في جانب أو مركب النقص في جانب آخر فالنعرات الاستعلائية خطرها في أي حوار لا يقل عن خطر الشعور بالدونية.

وهكذا نجد أن أي حوار يراد له النجاح لا يجوز أن تكون غايته العمل على إلغاء الآخر أو استبعاده أو التقليل من شأنه، أو الادعاء

باحتكار الحق دونه، ويمكن القول بأن الحوار الديني بالمعنى الحقيقي لهذا المفهوم لا بد أن ينطلق من الاحترام المتبادل، ومن نظرة إنسانية شاملة تقوم على احترام الكرامة الإنسانية، ووحدة الجنس البشري، وانتفاء الأنانية، والفهم المتبادل بمعنى التسليم بحق كل طرف في أن يكون مفهومًا من الطرف الآخر دون أي لون من ألوان التشويه أو التزييف.

وبعد هذا التمهيد الضروري الذي طال بعض الشيء ننتقل إلى موقف الإسلام من قضية الحوار الديني.

لقد انطلقت المبادرة إلى الحوار الديني أساسًا من القرآن الكريم في توجيه إلى النبي ﷺ وفي ذلك يقول القرآن:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾

(آل عمران: ٦٤)

وقد أدار النبي ﷺ في مسجده بالمدينة حوارًا مع وفد نجران المسيحي الذي قدم على النبي ﷺ في خمسة عشر رجلًا بقيادة أسقفهم أبي الحارث وقبل هذا الحوار سمح لهم النبي أن يقيموا صلاتهم في أحد أركان مسجده.

ويمتاز موقف الإسلام في أي حوار ديني على أي مستوى عالمي بميزة فريدة لا تتوفر لغيره من الأديان، وهي إيمانه بكل الديانات السماوية السابقة وهذه الميزة تجعله متحررًا من العقد والحساسيات التي تعكر صفو الحوار.

ومن أجل أن يكون هناك حوار مثمر وتعاون وثيق بين الجماعات البشرية - أيًا كانت انتماءاتها - دعا القرآن الكريم إلى ضرورة تعرف كل جانب على الجانب الآخر، وتفهم مواقفه على قاعدة من

المساواة التامة وهذا ما تعبر عنه الآية الكريمة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ ﴾

(الحجرات : ١٣)

وهذه الآية تبرز لنا المعنى الإنساني العام لطبيعة الإسلام، فنحن نتعرف على الآخر من خلال تعرفنا على أنفسنا، فنحن جميعًا قد خُلقنا من أصل واحد، الأمر الذي يؤكد وحدة الإنسانية والأخوة بين البشر على الرغم من كل الاختلافات بين الشعوب والتي يجعل منها الإسلام منطلقا للتعارف والتآلف لا مدخلا للنزاع والشقاق.

وهذا أمر من شأنه أن يوفر المناخ المناسب للحوار من أجل خير الجميع.

ولم يكتف القرآن بإعلان المبادرة إلى الحوار وتوفير المناخ المناسب لذلك، وإنما رسم أيضًا الأسلوب الذي ينبغي اتباعه في الحوار، فمن المعروف أن الحوار سيؤدي إلى مناقشات ومجادلات حول القضايا المطروحة على مائدة الحوار - وهذا أمر طبيعي -، ومن هنا وجه القرآن الكريم المسلمين إلى اتباع الأسلوب الأمثل في أدب الحوار بقوله :

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾

(العنكبوت : ٤٦)

بل إن القرآن قد جعل الجدال بالحسنى أحد المناهج التي يتحتم على المسلمين اتباعها، ليس فقط مع أهل الكتاب، وإنما مع كل الناس بصرف النظر عن انتماءاتهم الدينية أو العرقية أو غيرها :

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾

(النحل : ١٢٥)

ومـن الضروري فـي الحـوار بين الأديـان أن يتجـه المتحاورون إلى البحث عن القواسـم المشـتركة بين الأديان التي يجرى الحوار بشأنها، والبعد عن المسائل الشائكة في قضايا العقيدة، لأن الحوار حولها -فـي المراحل الأولى للحوار- غير مجـدٍ على الإطلاق ومن أجل ذلك ينبغي أن يركز الحوار على الأمور المشتركة وهي كثيرة، فالديانات السـماوية - على سـبيل المثال - تؤمن بوجود إله خالق لهذا الكون، وتؤمن بحياة أخرى بعد هذه الحياة تتحقق فيها موازين العـدل بيـن الناس، ويجازى فيها كل على عملـه إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، كما تؤمن هذه الأديان بمنظومة القيم الأخلاقية، والإيمان بذلك كله يتضمن سـلوكًا مستقيمًا ودعوة إلى المحبة والسلام بين الناس، وهذا يعني أن الحوار حول ما يجمع أصحاب الأديان من قيم مشـتركة هو أفضل السـبل لتفهم كل جانب للآخـر بهدف التعاون البنـاء بين الأديان مـن أجل خير الإنسـان وتقدمه واسـتقرار الأمن والسـلام في العالم. وعلى هذا النحو يمكن القضاء على الكثير من أشـكال الصراعات الدينية في العالم، وتحقيق السـلام بين الأديان الذي يعد شرطًا لا غنى عنه لتحقيق السلام بين البشر.

والقـرآن يبين لنا أن واجب الأديان ليس التنافس فيما بينها على مطامـع دنيوية، وإنما التسـابق في فعـل الخير، وهذا مـا يعبر عنه القرآن الكريم بقوله:

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾

(المائدة: ٤٨)

وفـي عصرنـا الحاضـر الـذي تقتـرب فيـه الجماعـات الدينية

والحضاريــة المختلفــة بعضها مــن بعض بصفة مســتمرة في (قرية كونيــة) تصبــح قضيــة العدل والســلام بيــن الناس علــى رأس هذه (الخيرات) وبالفهم الصحيــح للأديان ولدورها الرائد في النهوض بالبشرية يمكن الإسهام بشــكل فعال في العثور على حلول مناسبة للمشــكلات القائمــة، وهنــاك العديد مــن المشــكلات المعاصرة التــي لا يمكن حلهــا إلا بالتعاون بين الأطــراف المعنية بصفة عامة والدينيــة منهــا بصفة خاصة، ومن بين هذه المشــكلات الملحة في عالمنا المعاصر - على سبيل المثال لا الحصر - مشكلات التطرف والتعصــب والإرهاب والجريمة المنظمة والتطهير العرقي والإدمان ومشــكلات تلــوث البيئــة وتدميــر المــوارد الطبيعيــة والاضطهاد والملاحقات الظالمة للأفراد أو الجماعات أو الشعوب، ومشكلات الحــروب العبثية التي لا طائل من ورائها، وغير ذلك من مشــكلات على جميع المستويات.

إن الحــوار بيــن الأديــان يمكــن أن يؤدي إلــى تعــاون مثمر بين الأديان في الإسهام في حل هذه المشكلات وفي مكافحة العديد من الظواهر الســلبية في عالمنا، كما يمكن أن يسهم في إيجاد الحلول لمشــكلات التطور الاجتماعي وكل ذلك يسهم بدوره إسهامًا فعالاً في الوقاية من النزعات المحتملة، كما يمهد الطريق لحل النزاعات القائمة.

وهنــاك ملاحظة أخيرة وهامة تتلخص في أنه إذا أريد إجراء حوار مثمــر بين الأديــان، والوصول إلى تعاون مشــترك فيما بينها فإنه لا يجــوز للمتحاوريــن أن يســتعيدوا دائمًا فــي ذاكرتهــم وحواراتهم عوامل الكراهية القديمة، والعُقد الموروثة من أزمان غابرة وإحيائها مــن جديد، بل ينبغي بــدلاً من ذلك أن يتبنى الجميــع فكرًا إيجابيًا

يسعى إلى بناء مستقبلٍ مشرق ينعم فيه العالم بالسلام.

إننا نواجه اليوم أجيالاً جديدة، وعوالم جديدة، لم يكن لها ذنب في ظلم وقع في العصور السابقة، كما أنه ليس لها فضل في الأعمال الإيجابية للأجيال السابقة أيضًا، وما تحتاجه منا هذه الأجيال الجديدة هو أن نتيح لها الفرص المناسبة في بناء حياة مثمرة، وأن نساعدها في الوصول إلى ذلك وعلى قادة الأديان في العالم أن يبرهنوا على مصداقيتهم، ويتحملوا مسئوليتهم في توعية أتباعهم بكل ما يحيط بعالمنا من مخاطر، والتعاون فيما بينهم عن طريق الحوار في إنقاذ البشرية من كل ما يتهدد وجودها في الحاضر وفي مستقبل الأيام.

الفصل السادس

الإسلام في القرن الحادي والعشرين[15]

أولًا: مدخل عام:

إذا أردنا أن نتحدث عن الإسلام في القرن الحادي والعشرين فلا بد لنا من التعرف أولًا على نظرة الدين الإسلامي للإنسان ودوره في هذه الحياة، لأن ذلك يعد المدخل الحقيقي للحديث عن الإسلام في القرن الحالي أو في أي عصر مستقبلي قريب أو بعيد.

دوائر ثلاث:

إن الإسلام في جوهره دين للحياة بكل أبعادها المختلفة، دين يريد صياغة حياة المسلم صياغة متوازنة من خلال دوائر متداخلة تشمل حياة الكائن البشري كلها في صلاته بنفسه وبالله، وبغيره من أفراد الإنسان والحيوان والنبات والجماد، وبمعنى آخر صلات الإنسان بالكون كله بمن فيه وما فيه، وبخالق هذا الكون، فإذا كانت صلة الإنسان بنفسه سليمة ومتوازنة كان ذلك منطلقًا لاستقامة بقية الدوائر بهدف تحقيق السلام مع النفس في الدائرة الأولى ومع الله في الدائرة الثانية ومع الآخرين في الدائرة الثالثة.

ومن هنا وجدنا القرآن الكريم يقول عن الدائرة الأولى التي تتمثل في صلة الإنسان بنفسه:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾

(الشمس: ٩، ١٠)

لأن تطهير النفس من الرذائل والصفات الذميمة والأخلاق

---

(١٥) نص المحاضرة التي ألقيت في الجمعية الإسلامية الصينية في العاصمة الصينية بكين في ١٩٩٩/٩/٦م.

الفاسدة، وتزويدها بالقيم الأخلاقية السامية يجعل الإنسان يكتشف فيها:

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾

(الروم: ٣٠)

وهي تلك الفطرة الصافية النقية المبرأة من كل ما يعكر صفوها، والتي من شأنها أن تدله على طريق الهدى والرشاد الموصل إلى خالق الكون ومانح سر الوجود، الذي أشهد الخلق بذلك على أنفسهم - كما جاء في القرآن الكريم:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ﴾

(الأعراف: ١٧٢)

والذين لا يلتفتون إلى هذه الحقيقة ينبههم القرآن إليها بقوله:

﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

(الذاريات: ٢١)

وعندما تستقيم النفس على طريق الخير والرشاد، وتتحقق من آيات الله في الأنفس يشع فيها نور الإيمان الذي يملأ القلب باليقين الراسخ بالله الذي يشكل في وجدان المرء قاعدة أساسية لسلوكه في الحياة، وهذا يعني أنه إذا استقامت هاتان الدائرتان: صلة الإنسان بنفسه وصلته بخالقه فإن الطريق يصبح ممهدًا لاستقامة المسار في الدائرة الثالثة، وهي صلة الإنسان بالكون الذي يعيش فيه، بمن فيه من أناس، وما فيه من كائنات حية وغير حية، أما صلته بالناس فإنها تقوم في الإسلام على أساس من التوحد في الأخوة الإنسانية، ومن شأن الوعي بهذه الحقيقة أن يدفع البشر إلى التعامل مع بعضهم البعض وفقًا للقيم الأخلاقية كالعدل، والتراحم،

والصدق، والتعاون بهدف إقامة مجتمع إنساني يشعر فيه كل فرد بالأمن على نفسه وماله وأسرته، وأما صلة الإنسان بالكائنات الأخرى عدا الإنسان فإن الله قد خلقها لتكون في خدمة الإنسان، وجعلها مسخرات له، ومجالاً لبحثه ودراسته من أجل تمهيد الكون كله لما فيه خير الإنسان وسعادته في دنياه وأخراه.

ويعبر القرآن عن ذلك بقوله:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(الجاثية: ١٣)

ثنائية الإنسان:

ويؤكد الإسلام أن الله قد خلق الإنسان من طين -أي من مادة- ولكنه يؤكد في الوقت نفسه أن الله قد أضاف إلى ذلك عنصرًا آخر هو الروح المستمدة من روح الله، وبهذا العنصر الجديد كرم الله الإنسان وسما به ورفع قدره ولذلك طلب من الملائكة عند خلقه أن يسجدوا له:

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾

(الحجر: ٢٩)

ومن منطلق هذا التكريم الإلهي للإنسان حمَّله الله المسئولية عن هذا الكون، ليعمره، وينشر فيه الخير، ويصنع فيه الحضارة:

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾

(هود: ٦١)

أي: طلب منكم عمارتها، والعمارة المقصودة في هذه الآية عمارة مزدوجة: إذ تعني العمارة المادية، وتعني في الوقت نفسه العمارة المعنوية ليتواءم ذلك مع ثنائية خلق الإنسان من مادة وروح،

ومن هنا نجد القرآن في الوقت الذي يطلب فيه من الإنسان العمل للآخرة يذكِّره بعدم إهمال العمل للدنيا، وفي ذلك يقول القرآن:
﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾

(القصص: ٧٧)

فهناك إذن حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا يجازي الله فيها كل إنسان بما قدم من أعمال في حياته، فإن كانت أعماله خيرًا فجزاؤه خير، وإن كانت شرا فجزاؤه شر، فالله لا يظلم أحدًا ولا يرضى بظلم أحد، ومن أجل ذلك يدعو البشر إلى تحقيق موازين العدالة في الدنيا:

﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ﴾

(النساء: ١٣٥)

فريضة العلم:

وحتى يقوم الإنسان بدوره في عمارة الكون وصنع الحضارة فيه زوده الله بالعلم الذي يحتاج إليه، وجعل الإسلام العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة لا تقل أهمية عن فرائض الإسلام الأخرى من صلاة وصيام.. إلخ، وأمر الإسلام المسلمين أن يطلبوا العلم ويبحثوا عنه في كل مكان ويروى في ذلك قول مأثور ينسب إلى النبي عليه الصلاة والسلام: «اطلبوا العلم ولو في الصين».

وقد فتح الإسلام المجال بلا حدود للبحث والدراسة من أجل اكتشاف آيات الله في كل شيء؛ لأن ذلك من شأنه أن يعمق الإيمان ويرسخه في النفوس ـ كما يقول القرآن الكريم:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ﴾
(فصلت: ٥٣)

وتأكيدًا لأهمية العلم بمعناه الشامل لكل مجالات العلم والمعرفة رفع القرآن من شأن العلماء وجعلهم أخشى الناس لله:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾

(فاطر: ٢٨)

لأنهم الذين يدركون أسرار الحق وجمال الكون وجلال الخالق.

التكريم لكل البشر:

ولقد كانت نظرة الإسلام منذ اللحظة الأولى للإنسان بصرف النظر عن جنسه أو لونه أو دينه ـ هي نظرة التكريم – كما جاء في القرآن الكريم في وضوح لا يقبل التأويل:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾

(الإسراء: ٧٠)

كما لفت القرآن الأنظار إلى أن الناس جميعًا قد خلقوا من نفس واحدة وهذا يعني أنهم جميعًا إخوة في الإنسانية بصرف النظر عن اختلافهم في الجنس أو اللون أو العقيدة، فكلهم أبناء آدم وحواء. وهذا يعني أيضًا أنهم متساوون في كل شيء.

نظرة شمولية:

وتأسيسًا على ذلك نظر الإسلام إلى الاختلافات بين الأمم والشعوب لا على أنها منطلق للتنازع والشقاق والحروب والخصومات، وإنما على أنها منطلق للتعارف والتآلف والتسامح والتعاون وفي ذلك يقول القرآن الكريم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾

(الحجرات: ١٣)

ومن هنا أوصى القرآن المسلمين بضرورة العيش في سلام مع الآخرين الذين قد يكونون مختلفين عنهم، وأمر بمعاملتهم بالعدل

طالما أن هؤلاء لا يعتدون على المسلمين، وقد نص القرآن على هذه القاعدة الهامة في قوله:

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾

(الممتحنة: ٨)

وهكـذا نجـد أن نظرة الإسـلام إلى الإنسـان لم تكن أبـدًا نظرة ضيقة محدودة بحدود الإنسـان المسلم، وإنما شملت الإنسان في كل زمان ومكان فتكريم الله للإنسـان يعني تكريمه لكل إنسان من أول الخليقة إلى قيام السـاعة، ومن أجل ذلك جعل الإسلام الاعتداء على فرد واحد من أفراد الإنسانية بمثابة اعتداء على البشرية كلها. وفـي المقابل جعل من يقـدم الخير لفرد واحد كأنه قدمه للبشـرية كلهـا، تعبيـرًا عن التوحد بين أبناء البشـر جميعًـا وفي ذلك يقول القرآن:

﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ﴾

(المائدة: ٣٢)

تلـك كانت نظرة عامة وضرورية يتضح منها موقف الإسـلام من الإنسان والكون ويتضح منها كذلك دور الإنسان وصلاته المتعددة فـي هذا العالم الذي نعيش فيه وقد بين الإسـلام ذلك كله منذ أربعة عشـر قرنًـا مـن الزمان وهي مبـادئ راقيـة وتعاليم سـامية لم تصل البشرية إلى شيء منها إلا في العصور الحديثة، ولكن ما وصلت إليه أمـر ينقصه هـذا الربط المحكم بين صلات الإنسـان المتداخلة في الدوائر الثلاث التي أشرنا إليها.

ثانيًا: الإسلام في القرن الحادي والعشرين:

إذا أردنا أن نتحدث عن الإسلام في القرن الحادي والعشرين فإن علينا أن نسأل أنفسنا: هل هذه المبادئ التي جاء بها القرآن منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان يمكن أن تتواءم مع العصر الذي نعيش فيه: عصر ثورة المعلومات والاتصالات والثورة التكنولوجية.

عصر القرية الكونية التي يعتمد فيها كل على الآخر بطريقة أو بأخرى. عصر الفضائيات والبرمجيات والاستنساخ؟!

إن الإجابة عن ذلك سهلة ميسورة، وهي أن هذه المبادئ إذا تم تفعيلها وتحويلها إلى برامج عمل فإنها قادرة من غير شك على مواكبة كل التطورات، والوفاء بكل المتطلبات في القرن الحادي والعشرين وفي غيره من العصور؛ لأنها ليست مبادئ وقتية أو مرحلية، وإنما هي مبادئ أساسية ثابتة تصاحب البشرية في كل مراحل تطورها، وتجد فيها تلبية لآمالها وتطلعاتها.

الديمقراطية وحقوق الإنسان والتعددية:

فإذا كان عصرنا يعد عصر الديمقراطية وحقوق الإنسان والتعددية السياسية، فإن الديمقراطية الحديثة ليست إلا صورة من صور الشورى الإسلامية التي تتسع لأشكال عديدة طبقًا لاحتياجات الإنسان وتطورات الزمان وظروف كل مجتمع، بدلا من تكبيله بصورة واحدة لا مرونة فيها، أما حقوق الإنسان الأساسية التي أعلنها الإسلام منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان فإنها تتمثل في ضمان الحقوق الأساسية التي تشمل حماية حقه في الحياة، وفي الاعتقاد، وفي التفكير، وفي التملك، وفي تكوين الأسرة، ويتفرع من هذه الحقوق الأساسية حقوق أخرى كثيرة، كما أن هذه الحقوق الأساسية تتضمن الحرية والمساواة لكل فرد في المجتمع.

ولـم يكن ذلك كله من قبيـل الأمور النظريـة، وإنما كانت هذه المبادئ بمثابة الأساس الذي قامت عليه الحضارة الإسـلامية التي اسـتمرت ما يقرب من ثمانية قرون، قدمت فيها للإنسـانية الكثير من الأسس التي دفعت بها إلى آفاق واسعة من التقدم والازدهار.

أمـا التعددية السياسـية فإن الإسـلام يعتـرف بالاختلافات بين الناس، فلكل فرد شخصيته المستقلة وتفكيره الخاص، ويؤكد هذه الاستقلالية ـ على سبيل المثال ـ ما نعرفه في حياتنا العملية من عدم اتفاق فردين في هـذا الوجود في بصمة إبهاميهما، وعلى الرغم من هذه الاسـتقلالية فإنه لا بد لأي مجتمع بشـري من أن تكون لأفراده أهداف مشـتركة، أما التوصل إلى هذه الأهداف فقد تختلف السـبل الموصلـة إليهـا، ومن هنا تتعـدد وجهات النظر وهـذه الاختلافات فـي الاجتهادات من شـأنها أن تثري البحث عـن التوصل إلى حلول للمشـكلات المطروحة على بساط البحث، سواء كانت مشكلات على مسـتوى الأفراد أو الجماعات، أو على مستوى الدول، أو على مستوى البشرية كلها، وسواء كانت مشكلات ذات طبيعة سياسية أو اقتصاديـة أو اجتماعيـة أو ثقافيـة، فالتعدديـة إذن واقع لا يجوز تجاهله بأي حال من الأحوال.

التقدم العلمي:

أمـا مـا يتميز بـه العصـر الحاضـر من تقـدم علمي مذهـل فإن الإسـلام يشـجع على ذلك ويحث عليه بكل الوسـائل وبلا حدود، لأن الهـدف هـو خدمة البشـرية وتقديم الخير للناس مـن وراء هذه البحوث والدراسات والابتكارات والمخترعات في شتى المجالات، فالإسـلام قد جاء لمصلحة الإنسـان، ومن أجل خيره وسـعادته في دنيـاه وأخـراه، ولذلك فإنه يدعم بقوة كل ما فيه مصلحة للإنسـان

ويرفض كل ما من شأنه جلب الضرر إليه، فبحوث الذَّرة مثلًا أمر مطلوب، ولكن الإسلام يرفض استخدامها في تدمير البشرية، ويشجع على استخدامها في كل المجالات السلمية، ويقاس على ذلك كل المنجزات العلمية والتكنولوجية الأخرى، فالمعيار في ذلك كله هو الفائدة الحقيقية التي تعود على الإنسان.

الحوار الحضاري:

وإذا كان عصرنا يشجع على الحوار بين الحضارات والأديان والشعوب من أجل خير وسلام العالم، فإن الإسلام لا يرحب بذلك فقط وإنما يدعو إليه ويحث عليه ومن أجل التوصل إلى تعايش سلمي إيجابي بين البشر، يتبادلون فيه المنافع، ويتعاونون في سبيل الخير والأمن والسلام للبشر جميعًا:

﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾

(المائدة: ٢)

ولم يأذن الإسلام للمسلمين بالحرب إلا لرد العدوان:

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾

(البقرة: ١٩٠)

إنه دين يرفض الظلم في شتى أشكاله وصوره، ويدعو إلى إقامة موازين العدل بين الناس حتى ولو كانوا من الأعداء، وفي ذلك يقول القرآن الكريم.

﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾

(المائدة: ٨)

قضايا العصر:

وإذا كان عصرنا يعد عصر حرية العقيدة فإن القرآن هو الوثيقة

الأولـى فـي تاريخ البشـرية التي أكدت ذلك في وضـوح لا لبس فيه حين أعلن مبدأ حرية العقيدة في قوله تعالى:

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾

(البقرة: ٢٥٦)

وحين جعل أمر الإيمان والكفر متروكًا لحرية الإنسان واختياره:

﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾

(الكهف: ٢٩)

وإذا كان عصرنـا يضع التنمية الشـاملة في مقدمـة أولوياته فإن رسـالة الإسـلام كلها هي دعـوة صريحة إلـى هذه التنميـة بمعناها المادي والروحي بهدف إعمار الكون ماديًا ومعنويًا.

وإذا كان عصرنـا هـو عصر الحفـاظ على البيئة فإن الإسـلام قد جعـل حماية البيئة عنصرًا أساسـيًا من عناصـر الإيمان الديني حين قال النبي عليه الصلاة والسلام:

«الإيمان بضع وسـبعون شعبة، أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق» [صحيح مسلم].

ولقد فصل علماء الإسلام القول في ذلك بما يشمل الماء والهواء والكون كله.

وإذا كان عصرنا هو عصر التضامن بين الشـعوب والحضارات، مـن أجل إرسـاء دعائم الأمن والسـلام والاسـتقرار فـي العالم، فإن الإسـلام حين قرر أن جميع الناس إخوة - ينتسـبون إلى أصل واحد - قد جعلهم بمثابة أسـرة كبيرة ينبغـي أن يكون بين أفرادها علاقات سوية متوازنة.

وإذا كان عصرنـا ينبـذ التطـرف فـي الفكر أو في السـلوك فإن الإسلام - الذي جاء يدعو إلى الوسطية - يرفض كل شكل من أشكال

السلوك المتطرف، ويدعو إلى هذه الوسطية في كل شيء بلا إفراط أو تفريط.

الإسلام وتيارات التطرف:

وقد يتساءل البعض: إذا كان الإسلام على هذا النحو فما بالنا نشهد الكثير من تيارات التطرف تنبعث من بلاد العالم الإسلامي؟

وطَرْحُ هذا السؤال له ما يبرره، فقد شهدت العقود الأخيرة من القرن العشرين كثيرًا من أعمال الإرهاب والتطرف منسوبة إلى جماعات وعناصر إسلامية تزعم أنها تقوم بهذه الأعمال باسم الإسلام فكيف يتفق ذلك مع ما يدعو إليه الإسلام من نبذ التعصب والتطرف والإرهاب؟

إن الإجابة عن ذلك تتمثل في الرجوع إلى الأصول المعتمدة للإسلام والمتمثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية التي تعني أقوال النبي وأفعاله وما أقره من أفعال تمت في حضرته.

إن القرآن الكريم واضح وضوح الشمس في إعلانه أن دعوة الإسلام جاءت رحمة للعالمين: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)

والنبي نفسه قد عبر عن دعوته بقوله: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» [سنن النسائي] وفي ذلك رفض تام لكل شكل من أشكال التطرف أو التعصب أو اللجوء إلى العنف.

وهذا يبين لنا أن ما يلصق بالإسلام ظلمًا وعدونًا من مساندته للتطرف أو التعصب أو الإرهاب لا مكان له في مصادر الإسلام الأساسية: القرآن الكريم، والسنة النبوية اللذين يشتملان على كل القيم الرفيعة والتعاليم السامية.

إن فهم الإسلام فهمًا صحيحًا يرتكز على هذين الأصلين بشرط

عدم اقتطاع نَص من سياقه والتركيز عليه، لأن ذلك يؤدي إلى الفهم الخاطيء للإسلام، ومن أجل ذلك يحذر القرآن من الأخذ ببعض الآيات واقتطاعها من سياقها وتجاهل الآيات الأخرى في القرآن، مؤكدًا على ضرورة الأخذ في الاعتبار كل ما جاء في الموضوع ذاته من نصوص أخرى، وقد جاء تحذير القرآن في قوله تعالى:

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾

(البقرة: ٨٥)

ومن ذلك يتضح أن الإسلام ـ الذي يعتبر العدوان على أي فرد في هذا العالم عدوانًا على الإنسانية كلها ـ بريء من كل أشكال التعصب والتطرف والإرهاب، وأن من ينتسبون إلى الإسلام ويمارسون هذا السلوك الخاطيء لا يعبرون بأي حال من الأحوال عن تعاليم الإسلام فمصطلح الإسلام مشتق في العربية من نفس الأصل الذي اشتق منه مصطلح السلام، وتحية المسلمين فيما بينهم هي السلام، ومن أسماء الله السلام، والمسلمون يختمون كل صلاة من الصلوات الخمس كل يوم بالالتفاف بالسلام يمينًا، وشمالًا، وهذا يعني التوجه بأمنيات السلام لنصف العالم يمينًا ثم نصفه الآخر شمالًا.

إن كل التصرفات والسلوكيات الحمقاء التي تصدر بين الحين والآخر من بعض الأفراد باسم الإسلام ليست إلا خداعًا للآخرين، فأصحابها يتسترون تحت مظلة الدين للترويج لما يرمون إليه من أهداف سياسية أو أطماع شخصية لا صلة لها بالدين من حيث هو دين، وتندرج هذه التصرفات ضمن ما ينتشر فى عالمنا المعاصر من ظواهر الإرهاب الدولي والجريمة المنظمة التي ينبغي أن تتكاتف جميع الدول والشعوب من أجل مكافحتها والقضاء عليها، حتى

يتخلص هذا العالم من كل أشكال الظلم والإرهاب، ويعم السلام كل مكان في العالم الذي هو عالمنا جميعًا.

المبادئ وحركة الحياة:

إن وعي المسلمين بهذه المبادئ الإسلامية السامية، وإدراكهم الحقيقي لما تمثله من تطوير متواصل لحياة الإنسان، وتنمية لقدراته، وحرص على سعادته، من شأنه أن يدفعهم إلى العمل الجاد لإزالة الصورة السلبية عن الإسلام والتي انتشرت بصفة خاصة في النصف الثاني من القرن العشرين في وسائل الإعلام العالمية، ومن جانب آخر يجعل منهم عنصرًا فعالاً في الإسهام بنصيب وافر في القرن الحالي في تنمية الحياة والارتقاء بها في مجتمعاتهم، ودعم جهود التعاون المثمر مع كل الشعوب، والتضامن مع كل الجهود الدولية في البحث عن حلول لمشكلات عالمنا المعاصر، والمشاركة في صنع السلام والأمن والاستقرار في العالم، فإن ذلك كله ليس إلا تعبيرًا عن المهمة الأساسية التي من أجلها كان خلق الإنسان في هذا الوجود من وجهة النظر الإسلامية.

صحيح أن مشكلات عالمنا المعاصر تختلف كثيرًا عن المشكلات في الماضي، ولكن مبادئ الإسلام ذات آفاق لا حدود لها. ومن هنا تسع الإنسان في كل مكان وزمان، وتسمح له بحرية الحركة، والمرونة في الفكر والبحث عن الحلول للمشكلات، ومراعاة ظروف كل عصر، إنها إطار رحب للعمل يتسع لحركة الحياة، ولمتطلبات الإنسان، يدفع به إلى آفاق واسعة من التقدم في جميع المستويات، من أجل خير الإنسان الذي هو أشرف مخلوقات الله.

وقبل أن نختم حديثنا لا بد لنا من الإشارة إلى موقف الإسلام مما يثار من مناقشات حول مصطلحين شاعا على الألسن وفي كتابات

الكتاب في العقد الأخير من القرن العشرين وهما مفهوما العولمة وصدام الحضارات.

العولمة:

وحتى نفهم موقف الإسلام من العولمة يجدر بنا أن نمهد لذلك ببيان موقف الإسلام من الانفتاح على الثقافات والحضارات بصفة عامة.

إن الإسلام بطبيعته منفتح على كل الثقافات والحضارات، و(الحكمة) ـ كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها» (سنن الترمذي).

والأثر المشهور يقول:

«اطلبوا العلم ولو في الصين»، كما سبقت الإشارة إلى ذلك في أول حديثنا وفضلاً عن ذلك فإن الفيلسوف العربي الشهير (ابن رشد) الذي عاش في القرن الثاني عشر الميلادي، قد جعل هذا الانفتاح الثقافي واجبًا دينيًا، ولكنه في الوقت نفسه نادى بضرورة إعمال العقل النقدي للتمييز بين ما هو نافع وما هو ضار أو غير مفيد، وطالب بالأخذ بكل الإيجابيات ورفض كل السلبيات من أجل مصلحة المجتمع والحفاظ على هويته الثقافية، وهذا هو الموقف الإسلامي الثابت في كل العصور باستثناء بعض الفترات من الانغلاق الثقافي والانكفاء على الذات.

ولسنا في الحفاظ على الهوية الثقافية الإسلامية بِدعا بين الأمم، فالدول الأخرى تعمل أيضًا ـ في عصرنا الحاضر ـ على الحفاظ على هويتها الثقافية.

وأقرب الأمثلة على ذلك ما قامت به فرنسا في السنوات الأخيرة من إصدار تشريع لحماية اللغة الفرنسية وتحريرها من سيطرة المصطلحات والمفاهيم الأجنبية.

وعلى الرغم من هذا الانفتاح الحضاري الإسلامي، -أو انسجامًا معه-، فإن الإسلام يرفض كل محاولات الهيمنة أوٍ فرض نظم وقيم معينة على الشعوب في محاولة لمحو هويتها وبدلاً من ذلك يدعو الإسلام إلى التعاون والتضامن بين جميع الشعوب على أساس من الندية، وإذا كان الإسلام يعترف بالاختلافات بين البشر فلأن ذلك واقع لا يجوز تجاهله.

ومن هنا فإن التمايز الحضاري يعد حقيقة واقعة ولكن هذا لا يعني عدم وجود قواسم مشتركة بين الناس جميعًا وهذه القواسم المشتركة هي التي تشكل الأساس الراسخ للتعاون والتضامن بين الشعوب.

وإذا كانت العولمة الغربية ـ بمعنى إزالة الحواجز الزمانية والمكانية والثقافية بين الشعوب ـ سوف تؤدي إلى تعميق التعارف والتآلف والفهم المشترك والاحترام المتبادل، وإلى مزيد من التعاون بين الشعوب فإن الإسلام يرحب بها ويعمل على دعمها بكل قوة لأن ما تعنيه في هذه الحالة يصب في مصلحة الناس جميعًا.

أما إذا كانت هذه العولمة تعني الهيمنة ومحو خصوصيات الشعوب وجعلها تابعة تدور في فلك قطب واحد يتحكم فيها كيف يشاء فإنه لا يوجد إنسان عاقل يقبل ذلك.

وهكذا نجد أن الإسلام في تعامله مع العولمة أو غيرها من ظواهر أخرى لا يبادر بالرفض أو القبول دون دراسة أو تدبر، وإنما يقوم بفحصها ودراستها دراسة جيدة وبيان ما تحمله من إيجابيات أو سلبيات فيعمل على تنمية الإيجابيات وتجنب السلبيات.

وهذا يعني أن الإسلام لا يقف من هذه الظواهر موقفًا سلبيًا أو حياديًا، وإنما يقف منها موقفًا إيجابيًا يقوّم معوجها ويصحح

مسـارها، وهذا أمـر يتطلب من المسـلمين في العصـر الحاضر أن يكونوا على مسـتوى المسـئولية الإسـلامية، وأن يشاركوا بفاعلية في تقويم مسـار هـذه العولمة الجديـدة، والحد مـن أخطارها على الأمم والشـعوب وبخاصة شـعوب العالم النامي، وفي الوقت نفسه دعـم إيجابيات العولمـة وتنمية فوائدها من أجل خير الإنسـان في كل مكان، وهذا يعني من جانب آخر أن الإسـلام لا يسعى في القرن الحادي والعشـرين إلى طموحات الهيمنة والسـيطرة على الآخرين ـ كمـا يحلو لبعض القوى المغرضة في داخل العالم الإسـلامي وفي خارجه أن تروج لذلك ـ وإنما يسـعى الإسـلام إلى المشاركة مع كل القوى المحبة للسلام من أجل خير البشر جميعًا.

صدام الحضارات:

وانسـجامًا مع هذا الموقف الإسلامي من العولمة يرفض الإسلام كل دعـاوى صـدام الحضارات التـى روّج لها البعض في السـنوات الأخيرة بعد نهاية الحرب الباردة، ويدعم الإسـلام ويتبنى بكل قوة الحـوار بيـن الحضارات اسـتنادًا إلى ما بين هـذه الحضارات –التي صنعها الإنسـان– من قواسم كثيرة مشتركة، فجوهر الإنسان واحد فـي كل زمان ومـكان والاختلافات بين الشـعوب والحضارات أمور طرأت على البشـرية فضلا عن أنها قابلة للتغيير والتعديل، صحيح أن لهـا آثـارًا عميقـة المدى، لكن هـذا لا يعني أنها تلغي القواسـم المشتركة والخصائص الثابتة لدى البشر جميعًا.

وإذا كانت سـنة الحيـاة هي التنوع فليس هناك بـأس من التمايز الحضاري الذي من شأنه أن يثري التجربة البشرية عن طريق التفاعل الثقافي والحوار الحضاري من أجل مستقبل أفضل للبشرية جمعاء.

ولعلنـا بطـرح قضية (الإسـلام في القـرن الحادي والعشـرين)

علـى هذا النحو الموجز الذي اكتفينا فيه برءوس الموضوعات دون الدخول في التفاصيل ـ لعلنا نكون قد أسـهمنا ـ بعض الشـيء ـ في إثارة الاهتمام بهذه القضية المصيرية بالنسبة للمسلمين الذين تقع عليهم مسئوليات ضخمة تجاه شعوبهم، والتزامات لا يجوز الفكاك منهـا إزاء العالم الذي يعيشـون فيـه، وعليهم تحمل مسـئولياتهم والوفـاء بالتزاماتهم إذا أرادوا أن يكون لهم مكان في القرن الحادي والعشـرين يتناسب مع رصيدهم الحضاري الضخم وما يملكون من تراث خالد كان مصدر إلهام لكثير من الأمم والشعوب.

الفهرس